ثالوث

رواية

أحمد عفيفى

كان على أحدهم أن يملك تلك الجرأة

حتى يُقبل الدين عن قناعة

ويتوقف عن كونه إرث

وحتى يتجلى وجه الرب الحقيقى

بعيداً عن الفقهاء والباباوات

فلا خير فى دين يُقبَل على علته

ولا خير فى إنسان يُجبَر على دين

المؤلـــف

رب إمنحنى القوة لأقبل تلك الأمور التى لا يمكننى تغييرها

القديس فرنسيس

بالحق أقول لكم :

إن نقل الحجارة من رؤوس الجبال

أفضل من أن تحدث من لا يعقل عنك حديثك

كمثل الذي ينقع الحجارة لتلين

أو الذي يصنع الطعام لأهل القبور

السيد المسيح

وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ

القرآن

لدينا من التدين ما يكفى لكراهية بعضنا البعض

وليس لدينا منه ما يكفى لنحب بعضنا البعض

جوناثان سويفت

سوف ينبرى محاموا الرب للدفاع عن الرب، رغم أن الرب، لم يوكل أحد للدفاع عنه.

سوف يطاردنى ويطردنى، غلاة التعصب والتشدد، تحت رايات الجهل المقدس.

سوف يثبتون، من جديد – كعادتهم - دون أن يدرون؛ أنهم مغالون ومبالغون ومتحفزون، ولصوت العقل والحوار دائما رافضون.

سوف يكشرون ويزمجرون ويكفرون، وعلى صليب جديد، سوف يأخذون الرجل المسكين ويرفعون.

سوف يصفون ويَصِمون الرجل بالمأفون، وعن سؤال واحد من أسئلته؛ لن يجيبون.

فالأجابات أن بدت لهم، ربما تسوءهم، وهم بما فطموا عليه راضون قانعون.

المؤمنون ثابتون ...
لن تزحزحهم رواية
وإن فعلت ...
فلم يكونوا مؤمنين.

وقلت إلى ها هنا تأتي، ولا تتعدى، وهنا تتخم كبرياء لججك.

سفر ايوب الاصحاح 38 الاية 11

ياموسى متى دعوتني وجدتني فإني سأغفر لك ماكان

التوراة

إدعني إني منك قريب ولا تذكرني إلا وأنت متضرعا فإنك متى دعوتني كذلك أجيب

الإنجيل

وَإذا سَألَكَ عِبَادِي عَنِّي فإنِّي قريبٌ أُجيبُ دَعْوَةَ الدَّاع إذا دَعَان

القرآن

اللهم إهدنى فيمن هديت

المؤلف

تُلامس قدمى اليمنى صورة القمر المكتمل، المستلقى على صفحة الماء، أتذكر سيدنا إبراهيم وهو يرضى بالقمر ربا ثم يصبأ، أتذكره أكثر وهو يجادل الله لكى يطمئن قلبه، خليل الله لا يطمئن قلبه؛ فأنى لى أنا الطفل الأخضر أن يطمئن قلبى. تتسع حلقات الماء من تلامس أصبع قدمى اليمنى الأكبر وصفحه الماء الهادئة، تتسع وتتسع؛ ليغرق القمر، وتبقى دائرتي الكبيرة السوداء، صامتة؛ ليخترقها زائرى العتيد، يرتفع ويرتفع، ويتلوى عنقه الطويل الضخم ليباعد بين جسده ورأسه، ويتخذ وضعا مناسبا للانقضاض، وينقض، وأمام وجهى تماما؛ يتجمد، بنفس التشفى فى عينيه، ونفس الابتسامة الساخرة المنحوتة على شفتيه والكلمة الوحيدة المعلقة دائما فى صمت: "لن يظهر". يحتضن حاجبىّ بعضهما غضباً، وألملم عناد مشتت في عينى، وأردّ في تحدّ دون أن أنطق أنا الآخر: "سوف يظهر"، يتشتت عنادي وغضبى ويحل في قلبى بردا وسلاما وصوت أمى يحتضن أذنى:

- "أنت هنا".

ألتفت إليها، تلك الجميلة، التي أحس دائما أنها تشبه السيدة العذراء بشعرها الأسود الناعم الطويل وبشرتها البيضاء المشربة بحمرة ملائكية، وبرائتها التي تجعلها أقرب للعذراوات من أمّ، وكأن أبي لم يمسّها ، تبتسم؛ فتمتد ابتسامتها إلى آخر الكون، تجلس بجانبى وتحتضن رأسي في صدرها الطيب الدافىء، وتخبرنى من بين بسمتها وصوتها الشهى:

- لن يظهر الله لمجرد انتظارك له، هو سبحانه لا يتجلى للبشر.

- أنا أرغب برؤيته، هو يستطيع ذلك، هو الله.
- ولماذا ترغب برؤية الله؟
- لأطلب منه أن يأخذ الفقر والظلم و يخفف عن أبى عناء العمل واللهاث وراء أسباب الرزق، أن يجعل منزلنا يسعنا كلنا، أن يعفيك من ضرورة العمل بجانب والدى حتى تطعمونا، أن يأخذ من مال الأغنياء ويعطى الفقراء.

تبتسم وتخبرنى:

- لا يجب أن تفكر هكذا ويجب أن تتأدب عندما تطلب شيئا من الله، فهو سبحانه أعطانا الحياة وأعطانى إياك وإخوتك وقبلكم أباك، ووهب لنا السمع والبصر والفؤاد.

أنظر إلى عينيها السوداوين اللامعتين وأتعجب من دفء الإيمان الحميم الصلب داخلها وأضع رأسي على قدمها اليسرى وتجفل عيناى؛ فتضع أصابعها الصغيرة البضة فى حلقات شعرى وتحررها برفق وتعبث برأسي كما أحبها أن تفعل وتربت بيدها الأخرى على كتفي؛ فيتسلل إيمانها الدافىء الحميم إلى قلبى ويختلط بالبرد والسلام اللذان أحلتهما ببدنى، وأحس أنها إلاهة وليست أم وأنها حواء أمّ البشر وأن الأرض تجسدت بها وأننى آدم وأول من خلق.

تركل قدمى الصغيرة حجرا صغيرا مثلها، يئن من ركلتها ويعاقب حذاءها بالقطع، أبتسم ولا أبالى؛ فأنا شرير أحب ركل الحصى والأحجار، وأنا استمتع بالمطر المتساقط على رأسى وكتفي، أرفع وجهى لسماء ترسل حبات كريستالية تسقط بلا انتظام على جبهتى وشفتي، أفتح فمى لأتذوق طعمها فلا أجد طعما. تسقط قطرة في عينى؛ أغضب، وأجفل، ثم أستعد للانقضاضة التالية وانتقامى القادم. أفتح جفنى وأثبت بؤبؤ عينى، وأستقبل القطرة المقبلة في ثبات وتحد كصائد غزلان، تقترب القطرة وتقترب، وأراها يزداد حجمها ويكبر مثل كوكب، وأرى فمها الفاغر عن صرخه محتضر؛ فأدرك أن عينى مقبرة وأن القطرة

ضحية، وأخجل من تحفزي ورغبتى في الثأر وأرثى لحالها تلك المسكينة هي وأخواتها، وأغلق عينى، فعينى ليست مقبرة، تسقط أخرى في أذنى خلسة وتهمس: "لا تخجل، نحن لا نموت، أختى فقط تخاف وتخشي السقوط، لا أحد منا يموت، نحن فقط نتحول إلى ماء فى بحر أو نهر أو نسكن تربة أو نسقى زرعا، تلك هى سنة الحياة: التغير والتجدد، تلك هى حكمة الله". أفرح عندما أدرك حكمة الله، وتنفرج أساريرى وأفرد ذراعىّ عن أخرهما، أستقبل كل المطر المتساقط وأركض لأمرح مع باقى القطرات، أحاول أن أستقبلها كلها علّها تحل بى، وتجددنى، علّنى استقبل حكمة الله، فتأنس لى وتسكن بى.

تتجرد من ثيابها، قطعة قطعة، على الملأ، الشاخص ببصره، في بله أو شبق، تسير دون وعى؛ فتجحظ عيون الرجال المارة ويتوقفون، لا هم يبتعدون لحالهم، ولا هم يسترون لحمها العارى، تشخص أبصارهم بكل جاهلية الغباء الذكورى إلى العبيطة التي فقدت عقلها وتجردت من ثيابها، يجيلون البصر فى أعضائها وتتسمر عيونهم الجاحظة عند مناطق عفتها، بدلا من أن يستروها، أو يزيحوا أعينهم الغبية الشبقة عنها، وكأن الدين والأخلاق اختفوا أوانتفوا.

تشهق أمى الطيبة لمرآها، وترتطم يدها اليمنى بأعلى صدرها تعبيرا عن الهلع والصدمة كعادة النساء فى الأحياء البسيطة، وتنزع عنها جلبابا إضافيا، كعادة النساء أيضا فى الأحياء البسيطة بلبس جلبابين تحريا للحشمة ودرءا للنظرات ، لتدارى به سوءة الفتاة الفاقدة العقل "العبيطة"، كما يطلق عليها العامة والأطفال في الشارع الأقرب لحيوان وحيد الخلية. تستقبل الفتاة جلباب المرأة الطيبة دون مقاومة أو امتنان، تشخص ببصرها في وجه الأطفال الأشقياء ولا تفهم هتافهم: "العبيطة اهي .. العبيطة اهى".

"هدى العبيطة"، هكذا كانو يطلقون عليها، تلك السمراء الصغيرة التي لم تحظ بعقل، أو التي ذهب عقلها مع حبيب ذهب لزيارة الموت ولم يعد، حسب إشاعات تتردد على ألسنة الدهماء. أقف كالأبله وسط العامة والغوغاء، تتحجر مقلتاى على مشهد الفتاة ولا أصدق ما يحدث، رغم أنه يحدث.

كنت صغيرا لحوحاً كثير التساؤلات، تلوح لى دائما فكرة أن أبي قد يكون هو الله، بلحيتة البيضاء المهيبة وبنيانه القوي المتين وورعه وطيبته، وحب الناس الشديد له وحفظه للقرآن وإمامته لهم في الصلاة. يضحك ضحكته الصافية ويخبرنى إنه ليس هو الله وليس لبشر أن يكون. ألتف حول ظهره المقابل للقبلة وهو مسبل جفنية فى خشوع يتمتم بآيات مأثورات يختم بها صلاته، أبحث عن الله في تلك الكوة المقعرة في جوف المسجد ، أنظر إليها فى انبهار كمن تكشف له سر الأسرار، وأتوقع أن يكون الله في تلك القبلة التي يتجمع حولها المصلون، سوف يظهر الآن، ويبتسم. يبتسم أبى ويحيطنى بيديه ويربت على رأسي ويقبلها ويهمس في أذنى: "هو موجود، لكن لن تراه، هو فقط يراك"، أتعجب من حقيقة الكشف وتستدير عيناىَ الواسعتان ليملئهما أبى، وتملؤنى رهبة ورغبة أن يكون أبى هو الله ولا يرغب أن يخبرنى، يقرأ ما في عقلي على مرآة براءتى وشفافية بصيرته؛ فيحملنى ويضعنى فوق قدميه ويقبلنى ثانية ويواصل تسبيحه. أستسلم للتسبيح والتحميد. ولا أرى سوى وجهه ولا أسمع سوى دقات قلبة المطمئنة، وهو يحملنى كريشه بجلبابى الأبيض وأنا أسقط فى النعاس كما تعود وكما أحب.

أنتفض لصلاة الفجر وأنتظر. يقولون إن الله يقترب من الأرض في الثلث الأخير من الليل، أصلي وأخشع وأدعو وأنظر إلى السماء الصافية وأنتظره، تلفح النسمات الباردة وجهي بريح طيبة أجهل مصدرها، يقترب أبى. أتشمم رائحة المسك في يديه، بعدما زالت الريح الطيبة عنى، يمد أبى لي يده المتماسكة القوية ويردف:

- هيا يا شيخ!

أتعجب من اللقب وأتحسس ذقنى الصغير وأبحث عن لحيتى، فلابد للشيخ من لحية ولا أجد. أتتبع منابت الشعر في ذقنى وأتعجلها؛ ربما لو أصبحت شيخا أرى الله.

"الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض"، تنزل تمتمات أبى على قلبى بردا وسلاما، وآنس بحديث الله وصوته، وأكمل بصوتى الطفولى "يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم"، أنظر بين أيدينا أنا وأبي، وأنظر خلفنا وكأننا المعنيون بالأمر؛ فلا أجد شيئا، أنظر لوجه أبى الذى تخرج التمتمات من ثغره الباسم وتقترب خطواته حتى تلاحقها خطواتى الصغيرة المتسكعة في حضرته التي أحب التواجد دوما بها.

بعدما مات أبى، كنت أذهب إلى تلك الحفرة التي دفن بها، أتعجب، كيف لأبى أن يرقد فى حفرة مثل تلك، وماذا يحدث له الأن، وماذا سوف يحدث له بعد ذلك، وإلى متى سوف ينتظر فى ذلك المكان الكئيب البارد، أَلِأجلٍ غير مسمى، أبى، أبى أنا، ذلك الرجل الطيب القوى المؤمن، الذي كنت أعتقد أنه الله، يموت هكذا ببساطة، ويرقد فى حفرة مقبضة مظلمة، ويغلق عليه باباً، ويصير وحيدا، بعد أن كان يملأ الدنيا علينا بحضوره ووجوده وحديثه واهتمامه. أبى يسكن تلك القبور المقفرة التي ترتع بها أشباح وتُقبض فيها أرواح.

كنت أحب الذهاب إلى قبره، أزوره وأستجدى أياما خلت كان موجودا بها، كنت أجالسه وأؤانِسُه فربما إحتاجنى أو أحتاج شيئا، وربما لم يمت واستيقظ ينادى عليّ كعادته؛ فأهرع إليه، أخرجه من تلك الحفرة البغيضة المقبضة مجهولة المصير، كنت لا أعبأ بالليل والخوف، أنا لم أكن أخاف، خاصة فى حضرته، هو كان قويا، لا يصدق ولا تقنعه أو ترهبه قصص الأشباح والأرواح، حتى لو تجلت له، كنت أجلس أمام باب قبره، أكلمه كما

لو كان حيا، أخبره بكل شيء حدث، أكلمه عن حالنا وحياتنا، أستشيره وأستفتيه .. وأنتظر رده، كنت أطرق باب الحفرة الغبية التي تحتضن جسدة الطيب، علّه يعرف أننى بالخارج .. أنتظره؛ فيجيب. كنت لا أملّ من زيارته والحديث معه، علّه يشفق على ويصحو، كنت أتكلم وأضحك وأبكى وأحيانا أنام وكأننى أنام فى صدره، كنت مخلصا فى كل ما أفعل، موقنا أن إيمانى بأبى سوف يعيده إلى، راجيا أن تعيده إلى السماء ، فحاجتى إليه على الأرض، أكبر من حاجة السماء اليه، لن تنقص السماء بدونه، ولن يختل ناموس الكون بعودته، سوف ينتظم ناموسى أنا إذا عاد وعاش، لم يستجب القبر لندائى، ولم ترق السماء لدعائى، وكأنما كانت سماءً صماء لدعاء لا يستجاب. وصمتت السماء وعاد الدعاء ولم يعد أبى.

كان جدي رجلا وقورا مهيبا ومحبا للقراءة، امتهن الوراقة واتخذ لنفسه مسكنا بجوار المشهد الحسينى المبارك، منزلا عتيقا تحس معه أن الجان قد شيدته، ليس له تاريخ مسجل أو أصحاب معروفون، تملؤه القباب والسراديب وحجارته ضخمة كأنها من يمّ، كان جدّى يحب الاختلاء بنفسه بذلك المنزل المليء بالرهبة والجلال، يقرأ كثيرا ويجمع كتبا أكثر، تحمل أكثر أغلفتها عنوانا متكررا "الحقيقة"، عن أى حقيقة كان يبحث لا أدرى، كانت له غرفة خاصة هناك نطلق عليها: "المحراب" ينقطع فيها للقراءة بالأيام فلا نراه، كان جدى يحبنى ويؤثرنى أنا بشكل خاص دونا عن أخوتى وأعمامى، كان يرى بىّ شيئا غريبا ربما أراد أن يكون به ذلك الشيء ولم يكن، ربما هى حكمة، ربما هي لعنة إلا أنه كان يطيل النظر إلى عينى كمن يسبر غورا ويتمتم بغمغمات، لم أكن أتبين أهى آيات بينات من الذكر الحكيم أم تعاويذ وتمائم ورقيات بلغة لا أفهمها، كان يحتضن رأسي بيديه ثم يضعها في صدره ويبقينى هكذا هنيهة، ثم يباعد بين رأسي وعينيه وينظر في عينى برهة وألمح حيرة عميقة فى عينيه وربما ترقرقت الدموع ووجلت أن تخرج، كانت عينى غريبة كما أخبرنى هو، وكما كان يخبرنى الكل، ولأنها عينى فلم أكن أرى بها تلك الغرابة، إلا أننى أحيانا كنت أشعر أنها غريبة بالفعل، فأنا سواد عينى يكاد يحتل بياضها بالكامل حتى ليخيل للناظر لى أننى لا أملك بياضا في عينى، وتلك ميزة كانت تقرب منّى الفتيات؛ تلك المخلوقات اللواتي كنت أعشقهن فى المطلق، لا ولاء لى لواحدة؛ فلكل أنثي خلقت نكهة متمايزة عن الأخرى كبصمة الأصبع، لا توجد أنثى تشبه أنثى منذ خلق الله حواء حتى آخر أنثي سوف تدب فوق سطح الأرض، كانت تصطدم بى دائما في علاقتى بالإناث عقيدتى

التي تحرم الاختلاط وحتى مجرد لمسهن، فكيف بى وأنا أعشقهن، بل وأستمتع بذلك ضاربا عرض الحائط بكل تحذير وتحريم يستقر في إرثى وضميرى، كانت غريزتى أقوى من والدين والإرث والضمير، كيف تكون الغريزة أقوى من والدين والإرث والضمير؟ لا أدرى! كنت أعجب كيف لى أن أحرم نفسي من غريزة مزروعة بي كروح خالدة متحفزة لا تموت ولا تهدأ. كنت لا أعشق أى شيء على وجه الأرض مثلما أعشق النساء. لا أحب الطعام أو المال أو السلطة، كلها شهوات يبدو أنها ماتت وهى تولد عندى، كنت أرى بالنساء سحرا لا أراه بشيء آخر وكأنهن حياة أو سر الحياة ولسن نساء؛ أتصل بإحداهن تتسق حياتى وتنتظم كيمياء عقلى وجسدى، أقلع عنهن كرامة لعقيدتى أجدنى يبست مثل عود جاف على وشك السقوط، حتى أننى عندما أعرفهن تتسق علاقتى بعقيدتى. لا أدرى كيف تكونت تلك العلاقة المستحيلة المعقدة؛ أصلهن أصل عقيدتى، أقاطعهن أقاطع عقيدتى وأغرق فى بحر من الحيرة والألم والعناد. كنت دائما أبرر لنفسي علاقتى بهن أننى لا أرغمهن عليها ولا أضرهن بها ولا أضر أحدا، وكان الكل يعرف أننى أعرف تلك وأنها تعرفنى، ليس في الأمر مراء أو خجل، أنا أتنفس من خلالهن كما آكل أو اشرب، لماذا تلك الغريزة تحديدا محفوفة بالحذر والتحريم، وهى أشد الغرائز بأسا وأقواهن تأثيرا، ولم تكن تقنعنى أو تغريني فكرة الزواج؛ فكيف لى أن ألتصق بامرأة واحدة طوال حياتى؛ فللرجل اثنا وسبعون حورية فى الجنة وليس حورية واحدة، أى أن طبيعة الرجل جُبلت على عشقهن وليس عشقها؛ حتى في الجنة، ولا عقل يجعلنى أتزوج وأطلق، وأتزوج وأطلق، ولا طاقة لى على اثنتين أو أربع ولا أحب ذلك ولا تحب ذلك النساء أيضا، فكيف لها أن تأخذ نصفك أو ربعك، بينما تأخذها أنت كلها، لابد أن نحظى بنفس الحقوق ونفس الالتزامات، كما أن خبرتى عن الزواج أنه علاقة تتجمد وتفشل بعد حين وربما تؤدى إلى كراهية تامة بين شخصين كانا من المفروض أنهما يحبان بعضهما البعض وأن بينهما حب وعشرة ومودة ورحمة، أين تذهب تلك المعانى، لا أدرى، لا أحد يدرى وفى النهاية لا

يستطيعان الفكاك بسهولة من تلك العلاقة المعقدة بسبب الأولاد أو الضغوط الاجتماعية، فى حين أن علاقتى كانت تستمر أو تنتهى بمجرد اتفاق، بلا ضغينة أولا ألم أو أطفال.

كانت علاقتى بإحداهن تعيد إلى التوازن في كل أمور حياتى؛ فأغدو محبا للحياة متصلا بها في عملى وفى نشاطى وفي تعاملى مع الآخرين وفي نظرتى للأمور من حولى حتى في الجانب الروحى والدينى من حياتى؛ فأغدو أكثر روحانية وطمأنينة وقد أصاب بالإحباط بفقدها؛ فأتكاسل أو أتغاضى عن ذلك الفرض الروحى.

عندما مات جدى وضع مفتاح حجرتة فى يدى، كان مفتاحا عجيب التصميم، رأسه على شكل نجمة سداسية بيضاوية الأطراف وليست مدببة، ونهايته على شكل شوكة ذات ثلاث رؤوس غير مدببة أيضا، أصابتنى قشعريرة غريبة وهو يضعه فى يدى، كأن مساً من شيطان أصابنى، لدرجة أننى توجست أن يترك المفتاح أثرا فى يدى بعد أن أنزعه عنها، ولم يترك.

ظل المفتاح حبيس جيبى لا يفارق جسدى، وظلت الرهبة حبيسة روحى من تلك الأمانة الغامضة التي أودع سرها جدي فى يدى، وكأنه زرع بروحى عهدا لا يمكن الفكاك منه، أحاول نسيان الأمر فلا أستطيع، أحاول التخلص من المفتاح فلا قدرة لى ولا رغبة، وكأنه لا يرغب أن يتركنى، ولا أرغب أن أتركه، علاقة غامضة وغير معلنة نشأت بينى وبينه، أحسست أنه كخاتم الملك فى فيلم مملكة الخواتم؛ فتملكتنى رهبة ورغبة فى الخلاص، قررت بعدها الذهاب إلى محراب جدي، نفس المكان الغامض المرهوب الذى قضى عمره به ومات به أيضا وهو يبحث عن الحقيقة وسلمنى به المفتاح فى يدى فى صمت وبإشارة من عينيه، وكأنه يريد أن يخبرنى ألا أخبر أحدًا بوجود المفتاح معى؛ فقد كان قد فقد القدرة على الكلام قبل موته، ولم يجرؤ أحد بعد موته على مجرد التفكير فى فتح حجرته، وأنا قد

فاض بى ولم أعد أحتمل عبء ذلك السر، وتملكتنى رغبة فى الخلاص من تلك الرهبة وذلك الغموض؛ فزحفت فى ليلة مكتملة القمر، ودلفت إلى بيت جدي؛ ذلك البيت العجوز الهرم الذى يبدو أن الجان قد شيدته فى عهد النبى سليمان بحجارته الضخمة التي يتعذر على البشر حملها وجدرانه الشاهقة التي تقارب قامة المردة.

لم يتوقف قلبى عن الخفقان ولم يتوقف جسدى عن الوجل وأنا أجتاز فراغ البيت إلى حجرة جدى، حجرة الحقيقة، حجرة الأسرار، وأخرج المفتاح من جيبى للمرة الأولى منذ زرعه جدى فى يدى، لأجد المعدن يتألق فى يدى وكأنه صنع للتو أو تم جليه، أو هو فرح بولوجه أخيرا فى مكانه، لأجد نفسي أتراجع عن قرارى وأدسه ثانية فى جيبى وألتف على عقبى وأقرر الرحيل، لأتجمد وكأننى ما عدت أملك إتخاذ قراراتى، فأعود بمنتهى الهدوء والثبات وأخرج المفتاح السداسى الرأس الثلاثى الأطراف لأجده يلمع تلك المرة فى جرأة أكثر ووقاحة أكبر وصراحة أشد، فأقبض علية بقوة وربما فى قسوة وأدسه فى الباب بعنف فى فتحته تماما بدون خوف أو تردد أو خطأ، وأديره ثلاثا ناحية اليسار، عكس كل مزاليج المنزل التي تفتح إلى اليمين، لينتهى إلى مسامعى صوت معدنى، ينفرج الباب بعده من تلقاء نفسه عن صوت جليل وقديم وعميق وكأنه صوت لروح أطلقت سراحها، أحسست معه أن مخاوفى لم يعد لها مكان أو منطق، فما يحدث تخطى حدود الخوف والمنطق.

دلفت إلى حجرة جدي وأنا أرسل بصرى فى قدسية كمن سيجد ملاكا أو شيطانا، فلم يستقبلنى إلا الصمت، الصمت المطبق، والظلام التام، صمت قابع منذ قرون، وظلام لا يبدو أنه من الممكن أن ينيره شيء، أخرجت قداحتى لأتبين مفتاح الإضاءة، ثم تذكرت أن جدى لم يكن يستعمل إضاءة كهربية فى تلك الغرفة، فانتشر نور قداحتى وملأ الحجرة كماء يملأ فراغا، والتفت أتبين ما حولى لأصطدم بصورتى منعكسة فوق سطح المرآة الطويلة بجانب الباب، تعكس وجهى وجسدى بكاملهما ونار القداحة يميزانها من أسفل، فارتدت

روحى داخل جسدى حتى كادت أن تصطدم وترتد، تمالكت نفسي، فلم يكن سوى إنعكاساً طبيعياً لجسدى على سطح المرآة، جعلته نيران قداحتى يبدو وكأننى خارج لتوى من جحيم، إلا أن ما جعل روحى تنخلع وترتد ليس صورتى المنعكسة وإنما صورتى التي لم تكن جزعة، وإنما ثابتة ومطمئنة وربما بدت على ثغرها شبح ابتسامة، أتجاهل شبحى المبتسم وأتوسط الحجرة ... ولا أدرى عن ماذا أبحث.

تتوسد الكتب رفوفها وترقد فى سلام، تتوقف عينى عند صوان عتيق من الخشب الداكن، يصل أرضية الغرفة بسقفها، ويبلغ عرضه ثلاثة عشر سنتيمترا، هذا ما قدرته، وهذا ما كان. تركت كل الكتب المتراصة فى توابيتها على الجدران، وراعنى ذلك الصوان، ربما لصغره وغرابته، وربما لشيء آخر أكثر غرابة، ربما لأنه دعانى، اقتربت لأفتحه، لا مقبض له ولا موضع لمفتاح، خشب داكن وغامض وصامت، تفوح منه رائحة قرن مضى، تحسست الصوان بيدى من أعلى لأسفل لتتلمس يدى بين تجاويفه المنتشرة على سطحه تجويفا يماثل مفتاح الغرفة السداسى الرأس، الثلاثى الاطراف، فى حال لو وضع أفقيا على خشب الصوان، أخرجت المفتاح لأضعة فى مكانه، الذى تلقفه فى لهفة وتماثل، فلم يحدث شيء، ضغطت عليه برفق لأعدل من وضعه؛ فاندفع باب الصوان خارجا، واندفع معه فحيح، كان من المفروض أن يُروعنى، لولا أننى كنت قد تعودت على غرابة الحجرة وغرابة أطوارها، حتى صار المروع مألوفا، وصرت لا تلفتنى تلك الأمورالأصوات وأخذت أردد لنفسى أنها هلاوس سمعية وبصرية ليس أكثر. نظرت بالداخل فإذا بالتجويف ينقسم إلى ثلاثة رفوف: الرف العلوى يحتضن شمعة حمراء تبدو كضفيرة غليظة احترقت فتيلتها، وتبدو كمن لا ينتهى شحمها من كثرة الاستعمال، الرف الأوسط احتضن مسندا خشبيا مطويا يضم بين دفتيه قطعة خشبية رقيقة وناعمة وقوية، ولها يد تبدو كقبضة طفل حديث الولادة، الرف السفلى والأخير احتضن كتابًا ضخمًا كتب

عليه بخط هو مزيج من الكوفى والسريانى: "الحقيقة"، أتمتم فى سريرتى " أى حقيقة تخفى يا جدى، وعن أى حقيقة كنت تبحث".

أسحب الكتاب العتيق الضخم بكلتا يدى بهدوء ورفق، فهو ثقيل وقديم يكاد يتفتت بين يدىّ، ويقرقع كمن يوشك ورقه على التساقط، أحتضنه وأجلس القرفصاء على الأرض، أحمله وأباعد بينه وبينى وأنظر إليه فى صمت متبادل، أحس، ويكاد يصدق حدسى، أنه يبادلنى النظرات. أنظر إلى الحامل المعلق فى الرف الثانى، وأضع الكتاب برفق على إحدى الأرائك، وأقف لأسحب الحامل من مرقده، ولا أجد حاجة للشمعة، فسوف أقرأ الكتاب على نيران قداحتى. أضع الحامل الخشبى الثقيل على أرضية الغرفة وأفتحه برفق، يصدر صريرا مزعجا، وكأنه باب قلعة لم يكن من المفروض أن يفتح، تنتابنى قشعريرة، وأتخيل فرسانًا ليس لهم وجوه، يتشحون بعباءات سوداء، يخرجون من الحامل ليجتثوا رأسى، تقفز ابتسامة إلى شفتى؛ رغم وجلى من خرافة الفرسان أو ربما قفزت لمداراة وجلى، أرفع الكتاب وأضعه برفق على حامل الفرسان، أستجمع شجاعتى وأسحب نفساً عميقاً وأنظر إلى الحقيقة بتحدى، وأنا أتمتم بالبسملة، وأفتح ... ولا أجد شيئًا.

يتحدانى الورق العتيق بصمته، ويلتصق ببعضه كمن يخشي فراقا، يتشدد كألواح خشبية لسفينة لم تغرق بعد، أحاول تقليب الصفحات؛ فأفشل، أتعجب وأتمتم فى سريرتى؛ مال هذا الكتاب لا حروف ولا كلمات ولا صفحات. أنظر للشمعة الحمراء القانية وقاعدتها الغريبة الخشبية الرقيقة المسطحة، وأعيد البصر إلى الكتاب المفتوح لألمح كلمات تظهر لم تكن موجودة: "بالنور الأحمر ترى، بالقاعدة تتباعد الصفحات". أنتفض وأقف وأجيل النظر حولى فى الغرفة، ثم أتوقف وأحسم أمرى وأقرر الاستمرار حتى أصل لنهاية الأمر.

أُحضر الشمعة الحمراء القانية الغليظة التي تبدو كضفيرة شعر لأحد الجان، أشعلها، وأحتار أين أضعها، حينما أتبين تجويفًا سداسيًا فى مقدمة الحامل يشبه قاعدة الشمعة، أضعها فيلتئما، وأمسك بقبضة الحامل الخشبى القوى الرقيق التي تتخذ هيئة اليد لطفل حديث الولادة، وأقلب الصفحات .. وأقرأ

إذا إنت هنا ...

أخيرا

فى حضرة القوة ... والسلطان

فى حضرة الرغبات الممنوحة

فى حضرة الموجود الحاضر الفاعل

فى حضرة ما سيكون ... وما لم يكن

فى حضرة ما تحب وما ترغب وما تهوى

فى حضرة ما تُصدق وما ترغب أن تُصدق

فى حضرة الأنا والأنت والأنا الأعلى ... والهو

فى حضرة ما أنت عليه وما ترغب أن تكونه ... فى حضرة ذاتك

تنتهى الصفحة وتنتهى الكلمات وتتجمد عينى، أمسك الحامل الخشبى الرقيق وأدسه برفق بين الصفحات وأقلب، تتسرب الكلمات إلى قاع الصفحة كأنها قطرات ماء تغرق فى رمال. أتوقف عن التعجب، وأستمر فى التقليب، تطفو الكلمات على الصفحة التالية كتوابيت فرّت من قاع، تلتئم وتتراص وتبرز حتى يمكننى قراءتها، وأقرأ ...

إذا أردت القوة

إذا أردت المعرفة

إذا أردت السلطان

فلتستدبر قبلتهم

وليكن غُسلك بالحليب

ولتطأ كتبهم المقدسة

ولتطرح الخوف الضعيف

ولتتخلص من الرحمة البغيضة

اعتصرت روحى قبضة باردة، وانقبض قلبى كما لم ينقبض من قبل، وتوقف عقلى عن العمل وارتعد جسدى وانتفضت مسامه بعرق بارد بلل جسدى كله، وأحسست أن المكان تتجلى به الشياطين منذ خلقت حتى تحترق وعلا صوت أنفاسى حتى أحسست أنى لست وحدى بالغرفة، وارتفعت دقات قلبى حتى صار صوتها كمطارق تدك حصون عنيدة وتسرب الدم من رأسى وأطرافى حتى كدت أتجمد ولم تقو قدمى على حملى فانكفأت على جانبى الأيسرومكثت فى مكانى ثابتًا .. كالصنم.

تتعلق عيناى بالكتاب الملعون، ولا أقوى حتى على إبعادها. تراودنى خيالات عن أرضية الغرفة وهى تنشق عن قرار ملتهب وأنا أهوى فى قاعها وأختفى أو ينقشع سقف الغرفة وتتخطفنى طيرا أبابيل تتناوب على أطرافى وتلقى بها لمكان مجهول حيث لا ماء ولا هواء .. ولا رحمة.

أتوضأ بالحليب

وأستدبر القبلة

وأسحب أحد الكتب المقدسة

وأعتليه

وأنتظر

وأنتظر

ولا شيء يحدث

أسقط

عن الكتاب المقدس

خائر القوى مكدود العقل تدفعنى رغبة إلى الرحيل من ذلك الجب الملعون. أترك كل شيء على حاله وأتوجه إلى الباب وأعبر أمام المرآة. فى طريقى إلى الخروج ، تمتد يدى إلى المقبض وتتجمد، فأنا لم الحظ انعكاسا لجسدى فى المرآة، ألتفت فى حدة، ليتثبت يقينى ويتفتت قلبى من الهلع وتذهب البقية الباقية من عقلى وقوتى وأنا أنظر إلى مرآة فارغة لا تملؤها صورتى. أقترب بخطوات مهزوزة من المرآة، أبحث عن نفسى، أتلفت يمنة ويسرة، علّها هربت فى اتجاه آخر، أقترب وأقترب ولا شيء سوى الصمت والمرايا، ألتفت بحدة لأغادر المكان، تندفع يدى للمقبض وتتجمد ثانية، ولكن تلك المرة جمود الموتى.

- لم يحن أوان الرحيل.

اصطدمت العبارة بأذنى لأتسمر، ويكاد يتجلط دمى وتتشقق أوردتى وألتفت ببطء لأواجه أسوأ كوابيسى.

رجل أنيق فى غير مبالغة، وسيم فى غير إفراط ، ظهر هكذا، فجأة، من العدم، ترتسم على وجهه ابتسامة كتلك الابتسامة التى واجهنى بها شبحى فى المرآة عندما دخلت.

وفى آلية من لا يجد ما يقول أو يهرب بقول أى شىء، سألت:

- من أنت.

- أنا الشيطان.

هكذا رد مباشرة ببساطة وتلقائية .. وبجدية.

ارتفعت عقيرتى بالضحك بشكل لم أتوقعه، ومال نصفى الأعلى من الضحك حتى كدت أنبطح على وجهى، ورحت أتلوى من الضحك، ناسيا تماما دقة الموقف وغرابته، وعندما هدأت حدة نوبتى وجدته ثابتًا كصخرة، لم يضحك أو يتحرك؛ فقلت فى تحد واستنكار:

- يبدو أنك أحد أصدقاء جدى ممن يملكون مفتاحا لغرفته.

- أنا أحد أصدقائك أنت ولا أملك مفتاحا، أنا أملك كل المفاتيح.

كان يتكلم بثبات وثقة وجدية، لم يكن يضحك، ولم تظهر على وجهه أى ابتسامة منذ ظهر، كان يتحرك بهدوء وبطء، ويثق مما يقول.

أتحداه أكثر، وينتقل إليّ ثباته.

- الشيطان لا يتجلى.
- الشيطان تجلى للرب، وطالما تجلى للرب، فهو يمكنه التجلى.
- الشيطان ليس أربعينيا ولا يرتدى أحدث الموضات.
- الشيطان خالد بأمر الله، ولا يحده عمر، ويمكنه ارتداء ما يريد.
- الشيطان قبيحٌ، وبشع الخلقة.

- لم تذكر أيا من الكتب المقدسة وصفا للشيطان، لم تصفه ببشاعة الخلقة أو القبح، لم تصوره بقرون أو بذيل، والحقيقة وراء تصويرى بهذا الشكل جاءت بإيعاز من البابا كليمنت فى حربه ضد فرسان الهيكل، الذين كانوا يتحلقون حول الإله بافوميت رمز الخصوبة ليرتلون صلوات خاصة، وكان هذا الاله يتمثل بشكل رأس كبش، وهو الاعتقاد المعاصر الذى يقول إنه الشيطان ذو القرون المعروف بإسم إبليس والذى يمكن تتبع اصوله الى بافوميت ومحاولات الكنيسة لتغيير صورة اله الخصوبة ذو القرنين وتحويلها الى رمز للشر.

يستفزنى منطقه وتاريخه وعلمه، فألقى آخر ما عندى: .

- أنت من نار.

يرد بهدوء:

- وأنت من طين.

يحتار أمرى من منطق الرجل أو الشيطان، لا أدرى، فكلماته واثقة وصوته هادىء وحجته قوية، أدارى حيرتى وألتفت إليه بحدة، سائلا:

- وماذا تريد منى، أيها الشيطان، أو السيد، أو السيد الشيطان، أو أيا ما كنت، ولماذا تجليت لى.

- جئت لأساعدك، جئت لأضع حدا لحيرتك.

تنتابنى نوبة ضحك ثانية؛ أقاطعها وأنا أرد عليه:

- "الشيطان الرجيم المنبوذ، الذى تسبقه سمعته، يساعدنى أنا، ساعد نفسك يا رجل أولا، قبل أن تفكر فى مساعدة أحد، واطلب الرحمة من الرب، علّه يتقبل.

- إذا كان الرب رحيما .. فلماذا يصنع جحيما؟

فاجأنى سؤاله وصدمنى ولم أعرف الإجابة؛ فألقيت ما عندى:

- ليعذب فيه الجبابرة والظالمين.

- إذا لمَ خلق الجبابرة والظالمين؟.

- هم الذين تجبروا وظلموا.

- خطأ .. خطأ شائع.

- الجبابرة خلقوا جبابرة، والظالمون ولدوا ظالمين.

- هناك طيبون على فطرتهم.

- هناك ضعفاء و جبناء و مغفلون يخشون مما لا يرون، يخشون من الغيب والعقاب. لو أغلق الرب الجحيم لتحول أولئك الطيبون إلى أول المنتفعين، سوف يصبح الكذب والقتل والزنا أمورا عادية، مثل: الزواج والشرف والصدق.

- الطيبون ليسوا مغفلين أو منتفعين.

- أنت أحد المغفلين والمنتفعين.

- أنا!.

- نعم .. أنت .. أنت لا تصلى وتكذب وترى صورا عارية، ولولا جبنك لضاجعت نصف نساء الأرض".

أصمت؛ فأنا أفعل ذلك بالفعل، وأرغب فى مضاجعة نصف نساء الأرض، ولكننى أخشى من العقاب .. أخشى من الجحيم .. فقط أخشى من العقاب والجحيم ولا يردعنى جلال الله ولا الخشية منه، ولكنى أرد، أو أعترف، وكأننى كنت أنتظر أن أعترف أو أتخفف من عبء القلق والحيرة والخطأ، أو أتخلص منهم:

- نعم، أخشى من العقاب. نعم، أخشى من الجحيم.

- أى عقاب. وأى جحيم؟

- النار.

- هل رأيت النار؟.

- لم أرها.

- إذا كيف تؤمن بما لا ترى؟

اصمت.

- هل رأيت أحدًا يتعذب فى تلك النار؟

- لم أرَ.

- إذًا؛ لا نار.

- كل الكتب المقدسة أخبرت عن النار.

- الكتب المقدسة التي وطأتها للتو.

اصمت أكثر.

- الحياة أفضل دون كل تلك الغيبيات. أنت تدرك ذلك تماما وترفض الاعتراف به. كيف تؤجل كامل حياتك لغيب لست متأكدا من وجوده؟

- كل الأنبياء أخبرت عن نفس الأشياء.

- الأنبياء رجال، لهم قناعات، من قال إن الكل يجب أن يتقيد أو يلتزم أو يتبع تلك القناعات، كما أن هؤلاء الأنبياء أفسدوا فى الأرض بدلا من أن يصلحوا كما زعموا.

- الأنبياء مفسدون!! .. كيف؟.

- شتتوا البشر، كلٌ وراء قناعته، وأصبح لِكُل منهم أتباع، ونشأت الحروب من أجل تلك القناعات وبين أولئك الأتباع المخلصين المتشددين،

وربما دارت الحرب بين أتباع القناعة الواحدة، الكل متشدد، الكل متعصب، لا أحد يفكر، الكل على قناعة بأنه الأصح، وأن الحق عنده، والصواب حليفه، وهو فقط من على حق، كم من حروب وخطايا وخيانات تمت باسم القناعة أو الإيمان، بئس الإيمان الذى يخلق حربا أو حزبا أو نعرة أو ميزة، بأى حق يتميز قوم على قوم أو أحد على أحد.

- بحق الإيمان.

- أى إيمان تعنى؟ كل المؤمنين متشددون ومتعصبون ومصرون أن قناعتهم هى فقط التي على حق، ويجب أن تُتبع. من أدراك أى القناعات أحق أن تتبع؟ من أدراك أن هناك داع فى الأصل لاتباع أى قناعة؟ هناك الملايين من البشر الذين لم يشغلوا بالهم بتلك القناعات، ولم يتقيدوا بقناعة محددة وتفرغوا للحياة وأصبحت حياتهم أفضل من حياة أصحاب القناعات، حياتهم منظمة ومتوازنة وعادلة، على العكس تماما من أصحاب القناعات؛ فإما أنهم متخلفون أو ضعفاء أو لا قيمة لوجودهم أو يعتمدون بالكلية على الآخرين غير المقتنعين الذين لم يشغلوا بالهم بتلك القناعات المحبطة المحزنة المربكة. لو كانت الحياة بلا رسالات لكانت أفضل؛ فلن يكون هناك تعصب ولا تشدد ولا تحيز، الكل سواسية، الكل يحيا، الكل يعيش، الكل يتفق، لو لم تنزل الرسالات لما كان هناك ذلك الخط الأحمر الدامى على امتداد التاريخ من الصراعات والحروب والقتل، لم يكن ليتواجد اليهود المنتفعون والقساوسة الأفاقون وسيطرتهم وتسلطهم وصكوك غفرانهم ثم تساهلهم إلى حد إباحة الزنا واتخاذ خليلة أو خليل ومباركة الإطفال بعد الزواج، كل الخلفاء تحولوا إلى ملوك ولم يعد الأمر شورى بل أصبح وراثة للأقوى، لا حكمة ولا مغزى من خلقكم، أنتم تفصلون الدين حسب هواكم لا كما يرغب الرب، تأخذون ما يتفق ورغباتكم وتتركون الباقى للمستسهلين أو المؤمنين، خطيئتى الأولى والأخيرة أننى

تكبرت لمرة واحدة فقط ولم أسجد لواحد منكم، لبشر، وأنتم البشر ملايين منكم كل يوم لا يسجدون لله، ولم يعاقب أو تلاحقه لعنة أبدية، تتكاثرون كل يوم كالذباب وتموتون كل يوم أيضا كالذباب، بلا سبب أو نتيجة، تلهثون وراء غرائزكم، تكذبون وتسرقون وترتشون وتمتهنون القوادة والبغاء، يحتقر القوى فيكم الضعيف ويشمئز الغنى منكم من الفقير أى تغيير أتت به تلك الرسالات، لا تغيير حدث، لا فرق حدث؛ فقط مزيد من الإختلاف والخلاف، العصبية والتعصب، الحرب والدم، الجهاد المقدس باسم الرب، والجهل المقدس باسمكم.

تتشبثون بالظواهر وتكفرون الجواهر، تقصرون الثياب بشكل مضحك وتطلقون اللحى بشكل مبالغ وتأكلون بأصابعكم، وتدعون أنها سنة، وصاحب السنة نفسه كان يفعل ما يفعل ويرتدى ما يرتدى تحريا لظروف المكان والزمان، فيعتمرحتى يدرأ عنه الشمس، ويقصرعباءته حتى تتخللها النسمات فتخفف عنه قيظ الصحراء الشديد فى البيئة البدوية التي كان يحيا بها، وحتى لا يبدو كخيلاء القوم ممن سبقوه وممن عاصروه، وهو حل من الخيلاء، ببساطته وإعتداله وإتزانه، ولو أنه يحيا إلى اليوم لأرتدى السترات بلا حرج، فلا هى لباس ماجن أو رداء للنساء، لن تنقص من قدره ولن تقلل من قيمته، وسيبدو أقرب لرجال عصره ومكانه، تماما كما كان يبدو بعمامته وجلبابه فى حينها أقرب لرجال زمانه وبيئته، لم يفرض عليكم لباسا، ولم يشر أن لباسه لباسا دينى أو عقائدى أو مرتبط بالدين، حتى الرب، لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم، كان يلبس كلباس قومه وأهله وعشيرته، ممن تطلقون على زمانهم جهلا؛ جاهلية، كيف ينشأ مثل ذلك الرجل فى جاهلية؟ وهو من قال " خيركم فى الجاهلية، خيركم فى الإسلام"، يطلق لحيته ويهذبها ولا يتركها على إطلاقها فيبدو سمحا لطيفا ودودا كما ينبغى لرسول أن يكون، يأكل بأصابعه لأنه يقتصد ولا يشتهى، لم يكن بحاجة لمغارف وملاعق فلم يكن يأكل مثلكم عشرة أصناف فى الوجبة

الواحدة، كان طعامه قليل وخشن كحياته وكما اوصاكم " إخشوشنوا" فكان يستخدم أصبعين أو ثلاثة لتناول طعامه القليل البسيط من تمر أو قديد.

لو أنكم فقط تفكرون مثلة ولا تقلدونه، لكنتم خير امة، كان رجلا عظيما، ذو عقلا عظيما، وإرث أعظم، تكالبتم على إرثه كما تتكالب الأكلة على قصعتها، بعقولكم المحدودة، وتقليدكم الأعمى، وجهلكم المقدس، تشيعتم ولم تكن فى رسالته ولا سنته شيعة، تفرقتم الى ثلاث وسبعون فرقة، وهو من جاء ليوحدكم، اعتزلتم وتصوفتم، وتمذهبتم، ووضعتم عقولكم فى أقفاص ضيقة وكهوف مظلمة، تدورون ولا زلتم، فى دوائرة صماء عمياء، من صنعكم وليست من سنته، منذ إن تركككم حتى الآن، تتحلقون حول كتابكم، رغم أنه جائكم لتنتشرو، لا لتصموا آذانكم عما دونه، يخبركم إن تطلبوا العلم ولو فى الصين، فلا تطلبوا العلم فى سواه، وكأن ما دونه كفر وبدعة، يخبركم أنكم أدرى بشئون دنياكم، فتهجرون دنياكم وكأنها مكروه وليست هبة، يخبركم أن تقرأوا؛ فتنتظروا الآخرين أن يقرأوا ويفهموا ليخبروكم ويعلموكم، قدستم الملك وأطحتم بالشورى، تقاسمتم الأرض وملكتموها، كما كان يفعل الأكاسرة والروم، أصبحت الشام ومصر وما خلفهما للأكثر دهاءاً لا للأكثر تقوى، قتل خلفاؤكم علماؤكم، فدقوا أعناق من قرأ وفكر، وقطعوا السنة من تكلم كلمة حق، جعلتم من كلام الرب مخلوقاً وتأولتم على الله، سجنتم وعذبتم اولى الألباب منكم ممن لم ينساقكوا خلف هواكم المختل وجهلكم المقدس.

يخبركم أنه لا ينطق عن الهوى، فتصدقون عنه ما تواتر إليكم، وما لا يمكن أن يصدر عن عقله وعن أدبه الذى أدبه ربه، كيف وبأى منطق يتساوى من يقتل نفساً بغير حق والمسبل إذاره فى النار! يعلمكم ويؤدبكم ويجهزكم لقرون مقبلة، فتسلموا إرثه للفقهاء والمذاهب والأهواء، يقول البخارى فتقولوا صحيح. للرجل مجهوده الكبير فى الجمع

ولكنه غير معصوم أن يؤخذ عليه، إن لم يتفق ما سمع أو جمع مع العقل والمنطق ورجاحة ودقة عقل ووحى النبى، ومسح وجه الخف أولى لأنه يستقبل القبلة وأولى بالمسح من نعله الذى قد يحمل ما لا يطيب ويفسد اليد والوضوء إن تم مسحه.

أخرج مطأطىء الرأس، تتناوب على رأسى معاول، ويلفح الآذان أذنى فلا استجيب كعادتى. أفكر فى الخلق المنسلين كالجراد إلى المسجد منذ ألف وخمسمائة عام، والخلق المنسلين إلى الكنيسة منذ ألفى عام، والمتجهين إلى المعبد منذ أكثر من ألفى عام؛ كلٌّ مؤمن بقناعته متشبث بها، يدافع عنها باستماتة، يدافع عنها بالدم حتى الموت.

أسائل نفسى، لوأنه لم تتنزل الرسالات؛ ألم يكن يتجه الكل لسماء واحدة؟

أفكر فى الكون وأعرف أن له خالق، لابد أن يكون له خالق، لا تنشأ الأشياء من عدم، إلا أننى أحيانا لا أحب ذلك الخالق، ولا أقتنع به، وربما تراجعت عن فكرة الإنتحار مرارا ليس لخوف أو ضعف أو إيمان، وإنما لأننى لا أرغب بلقائة، أو ربما لأننى لست مستعداً للقائه حتى الآن. هو خلق الكون وأربك البشر وتركهم لآفات وابتلاءات لا قبل لهم بها وغرائز شرسة تُفقد العقل والمنطق عند أول بادرة للفناء. أعرف نساء امتهن البغاء، لا لرغبة ولا لثراء؛ فقط ليأكلن أو ليطعمن أطفالهن؛ فالحياة شرسة وغريزة الجوع أشرس. لا تصبر، والرجل العائل مات، هكذا بدون سبب، فجأة، أو سجن أو تركها بدون سبب أو بسبب، وهى لا تجيد شيئا، ولو وجدت عملا شريفا سوف تأكل بمقابله حصى، وربما لا يكفى عائده لشراء الحصى، ولو أصرت على العمل الشريف؛ يراودها صاحب العمل أو زوج السيدة التي تخدمها عن نفسها، وإذا امتنعت وتماسكت لعفة أو لخجل؛ صارت حياتها أشبه بحياة الكلاب: أكل سيء ومأوى أسوأ ومستقبل أسوأ لها ولصغارها.

لماذا الفقر؟ إذا كان الرزق بيد الخالق؛ فلماذا لا يُقسط؟ لماذا لا يتنزل الرزق بالتساوى؟ لماذا يذهب القسط الأكبر للأغنياء ويلهث الفقراء حول الفتات الباقى؟

لماذا المرض؟ لماذا يُبتلى أو يمرض الناس؟ ما الداعى لشخص يفقد بصره أو يفقد قدمه ويعيش بعاهة مستديمة؟ ما الداعى للمرض والألم؟ أين الرحمة فى الإبتلاء؟ ولماذا لا تكون الرحمة فى الصحة؟

أيجب أن تمتلىء الحياة بالفقر والمرض ؟ وما الداعى أن يتألم أحدهم من الشلل أو سرطان المثانة أو التهاب الكبد؟ وما الحل إن كان هذا الأحد فقيرا لا يملك تكاليف العلاج؟

ما الداعى للعنوسة؟ ولخلق النساء بإعداد مفرطة عن الرجال؟ ولماذا إصرار كل الرسالات والقناعات على تحريم الجنس واعتبارة خطيئة الخطايا؛ رغم أن تلك الرسالات نفسها لا تقدم حلولا لإرضاء تلك الغرائز سوى الزواج، وهو حل عسير يصعب تحقيقه فعليا وماديا، ويفشل فى أغلب الأحيان لمرض مزمن عند الرجال اسمه: شهوة النساء، حتى الجنة لا توجد بها امرأة واحدة؛ بها سبعون أو يزدن من الحور، وهودليل على فراغة عين الجنس الذكورى، وانتفاء جبلته عن الرضا بواحدة، أو لأسباب أخرى كثيرة.

تحرم الديانات الزنى؛ ويزنى سواد الناس أغلب الوقت، تحرم الخمر؛ ويدمن الكثيرون الخمر، وكأن تلك الرسالات أتت لتفعل لا شىء.

لم تصنع شيئا فعليا على الأرض، لم تحقق السلام للبشر بل على العكس؛ أشعلت الفتن وأثارت العصبيات وأراقت الدماء وأججت الرغبات، والذى لم يشبع رغباته مهموم مكروب ومحبط، لم توفر له القناعة سببًا ليحيا وهو سعيد، بل زادت من تعاسته وإحباطه.

لو أن الرسالات لم تنزل؛ لكان العالم أفضل، ربما خلا من الحروب ومن الكراهية، وتعامل الناس مع الجنس بدون خوف أو ازدواجية، ربما أصبح العالم متوازنا وغنيا بلا حدود أو كراهية؛ الكل يسافر، الكل يعمل، الكل يعيش، الكل يحظى بنفس الفرص.

الكل يعيش تحت سماء واحدة، وفوق أرض واحدة، الكل يتعايش تحت قناعة واحدة؛ بدلا من القناعات المتعددة التي عمقت الخلاف وزودته وأججته؛ حتى باتت كل الحروب والخلافات والكراهيات نتيجة اختلاف القناعات.

تبدو الحياة كما لو كانت تمتد إلى ما لا نهاية، وكأن الساعة فقدت عقاربها، يستوى الخالق فوق السماء، ويربض الإنسان على الأرض ويرتع الشيطان بين الاثنين، والسماء صامتة منذ 1400 عام أو يزيد، والفجوة تتسع بين الأرض والسماء حتى لتكاد تختفى علاقة الخالق بالخلق تحت وطأة الصمت المستمر والحاجة الأكثر استمرارا، يربض الشيطان فى كل المساحات التي تخلو من اليقين ويساوم أصحابها، يستوطن الأرض ويسخر البشر؛ تارة بعلمهم، وتارة بجهلهم، وتارة بحاجتهم، وتارة أخرى بسبب الدعاء الذى يصعد ولا يأتى.

من يفكر الآن بالجنة والنار؟ من يفكر أن يرى وجه الرب؟ وما الجدوى من مشاهدة وجه الرب؟ لا أحد يشغل باله بتلك الأشياء، البشر مشغولون بالحياة؛ أى أن يحييوا لا أن يستمتعوا بالحياة، فقط يحييوا، يعيشوا، يحافظو على بقائهم؛ فلا أحد يرغب بالموت؛ لا أحد يحب أن يموت، وإذا حاول الراحة والتخلص من حياته بات كافرا، ومصيره الجحيم، ولا أحد يدرى ماذا بعد الموت؛ سبات عميق حتى القيامة، ومتى القيامة؟ منذ أكثر من ألفى سنة ويزيد، منذ نزول الرسالات الكبرى وهى تخبر عن القيامة، أشار إليها النبى محمد، وباعد بين إصبعيه السبابة والوسطى، وقال: "ما بين قدومى وقيام الساعة كمثل ما بين إصبعى"، ومرت 1400 سنة ولم تأتى القيامة، ولم يرتاح البشر من تلك الأمانة الثقيلة، ولو أن حسابات الرب تختلف عن حسابات البشر، ويمثل ما بين أصبعى النبى محمد مقدار 1400 سنة أو يزيد؛ فحساب البشر مختلف ومحدود ونسبى، كما أشار إليه أينشتين فى نظرية النسبيه، عندما تمسك قطعة ساخنة من الحديد لمدة ثانية فإنك تحس بها كأنها ساعة، والبشر يمسكون بقطعة الحديد تلك منذ خلقوا بكل ألمها وقسوتها وغرابتها وغياب المنطق والمغزى عنها، ما الداعى؟ ما المغزى؟ ما الجدوى من الخلق؟ عبادة الإله الواحد؛ رغم أن عبادة البشر للإله الواحد لا تزيد أو تنقص من ملكه شيئا، ورغم أن البشر تفرقت وما زالت متفرقة ومتحلقة، كل حول إلهه؛ يعبد المسلمون الله، ويعبد المسيحيون المسيح أو الثالوث: الآب والابن والروح القدس، أو الرب، ويعبد اليهود يهوه أو إله نبيهم موسى، ويعبد الصينيون بوذا، وهو رجل وليس إله، وهم مقتنعون به ويتقيدون بتعاليمه، ويتجنب اللادينيون عبادة أى إله أو يعبدون العقل وربما يقتصرون على عبادة ذاتهم، المربك والمحير أن أيا من الديانات الكبرى المنشقة عن إله واحد لم تحقق جوهر ما هو مرجو من رسالتها، وهو المساواة والخير لكل البشر، فالشورى فى الإسلام لم تطبق بعد وفاة النبى، وتم اختيار الخلفاء على اعتبارات السن والصيت والقرب من الرسول فى حياته، ولمَّا ابتعد الرسول بوفاته وخَفّ حضوره تحول الأمر إلى رغبة بشرية خالصة فى الملك تزعمها

معاوية بن أبى سفيان، أبو سفيان، أشرس المدافعين عن دين الآباء وأحد أشهر أئمة الكفر ودخوله الإسلام رغما عنه بعد غزو المسلمين مكة وفراغ حيلته وقوته، ومعاوية ابنه، الصحابى المسلم، خليفة المسلمين المبايع من أكثر المسلمين رغبة فى الدنيا والملك، تلك الرغبة فى الحياة والملك التى قادها معاوية لتصنع أول فتنة كبرى فى تاريخ خير أمة أخرجت للناس، ارتفعت فيها سيوف المسلمين فى صدور المسلمين مثلهم، واجتثت الأرواح المسلمة بسيوف مسلمة، وارتفع القرآن على أسنة الرماح ليتوقف نهر الدم مؤقتا، ذلك النهرالذى لم يتوقف بين أبناء الدين الواحد والأمة الواحدة، خير أمة أخرجت للناس؛ والتى أصبحت أضعف أمة بين الناس. اليهود اغتالوا المسيح مرة والمسيحيون اغتالوه ألف مرة؛ فهو مرة الابن ومرة الرب ومرة الابن والرب، وحكمت الكنيسة حياة الناس وحولتها إلى جحيم وأنشأت محاكم التفتيش لتفتك بأى عقل، وأى فكر وابتدعت صكوك الغفران، وعندما تألب عليها الناس انهزمت وانزوت فى الفاتيكان بين طقوس كنسية ومزايا دنيوية، وأصبح الدين أمرا مزاجيا؛ من يرغب فليؤمن أو يكفر، من شاء فليذهب إلى الكنيسة أو لا يذهب، من شاء فليتخذ خليلة أو خليل، بعد أن كان النظر لامراة كالزنى بها.

لماذا المسلمون فى الغرب متحضرون، وكأن المجتمع يهذب الدين، لا العكس، لماذا لم يأمر الله النبى محمد بتدوين القرآن؟ ماذا لو أن الصحابى أبو بكر، وهو رجل فان لا يوحى له، لم يأمر بتدوين وحفظ القرآن من صدور الصحابة الذين كانوا يحفظونه شفاهة؟.

لماذا الرب القرآنى كالرب التوراتى، يسهب فى ذكر اليهود فى أولى سور القرآن، ثم يتحيز للمسلمين كما تحيز لليهود فى التوراة، وكأن باقى الأمم لا خير بها، رغم أنه من خلقها، لماذا يرغب الرب بالقرابين، فيأمر اليهود أن يذبحو بقرة ويأمر إبراهيم أن يذبح أبنه ؟ ما الجدوى من ذبح بقرة أو ذبح شاة؟ وما المغزى من شعائر التضحية وتقديم القرابين ؟ وما الفارق بينها وبين قرابين حضارات المايا والأنكا والقبائل التي كانت تعبد الطوطم ؟

والتى لم تكن تؤمن بإله! ولماذا لم يأمره ببساطة ألا يذبحه، كما أوحى له سابقا أن يذبحه! دون قرابين أوكباش!

ما الفارق بين طواف المشركين حول بيت، وطواف المسلمين حول نفس البيت، وما الداعى لأستبقاء واستمرار تلك الشعائر الوثنية الجاهلية، وما الجدوى من رمى الجمرات وهى ليست بجمرات على خازوق حجرى لا يضر ولا ينفع وليس بشيطان، الشيطان كائن معنوى قد يرجم باليقين ويدرء بالإيمان،وليس بالتزاحم والتدافع والرجم والوهم، ما المانع أن يزور المؤمن الرب فى عقله، وأن يطوف به فى قلبه ؟

لماذا يأمر نبيه بقتل من لا يدخل فى الدين الجديد، كما أمر أنبياء العهد القديم؛ كيف يجبر الرب البشر على الإيمان به؟ وكيف يدق أعناقهم إن لم يؤمنوا؟ وأين ذهبت كلماته عن اللا إكراه فى الدين؟ كيف ولماذا ينتشر الدين بالغزو والسيف؟ ولماذا لا يؤمن من يقتنع، ويظل على دينه من لا يقتنع؟ كيف للبشر وطبائعها وثقافتها وتاريخها وشعوبيتها وقبليتها وعصبيتها أن يرتدوا نفس عباءة الدين الواحد؟ كيف يتخلى النصارى عن ستمائة عام من الإيمان؟ كيف يتخلى الفرس والروم، القياصرة والرومان، المغول والقوقازعن تاريخهم وتراثهم وقناعاتهم؟ كيف أرتدوا إلى دينهم وإرثهم وتاريخهم بمجرد أن سنحت الفرصة لهم؟ ولماذا لم يتوغل الدين الجديد بهم إذا كان دين الفطرة؟ ولماذا لم يرسخ فيهم ويثبت، إذا كان الأختيار النهائى للرب؟ لماذا البوذيون أكثر من المسلمون؟ رغم أنهم لبشر يتبعون؟ لماذا هم متسامحون لا يتعصبون أو يتشددون ولا يقاتلون أو يتقاتلون؟

لماذا النساء عورة وناقصات عقل ودين؟ وفيهن أمهات المؤمنين، وقبلهن زوج رسول الله السيدة العظيمة خديجة بنت خويلد، تلك المرأة الذكية القوية الجريئة، التي أحبت النبى وساندته وطلبت منه الزواج وناصرته! لماذا صوت المرأة عورة، وطيبها عورة،

وظهورها عورة، ولابد أن تستتر، وتتكلم من وراء حجاب، ومصدر كل الشرور وأصل كل الفتن؟ لماذا ترزح تحت وصاية وتسلط الجنس الذكورى؟ وكأنها تابع لا كائن؟ لماذا تُسبى كالبهائم والمتاع، وكأن لا حق ولا عقل لها! لماذا تحتشد بها النار مقدماً؟ لماذا خلقت فى الأصل إن كان وجودها بكل تلك الفتنة والشر والنقص؟

لماذا الإنسان دائما فى حيرة؟ لماذا لا توجد إجابات شافية؟ لماذا تختفى كل الإجابات وراء حكمة مجهولة، لماذا تصر الحكمة على خلق الحيرة والقلق والتوتر؟ لماذا تعصف الحكمة بالأبرار قبل الأشرار؟ لماذا الحكمة صامتة وغامضة؟ لماذا الحكمة قاسية ومؤلمة؟ لماذا لا تعبأ بالبشر؟ لماذا تصمت، وتتجاهل، وتنتظر، وتختبر؟ لماذا تجرب الحيرة والقسوة والألم؟ لماذا لا تجرب الحب؟

الدين يربى الخوف، الخوف من الإله، الخوف من الجحيم، الخوف من الذنب، الخوف من العقاب، الخوف من الحكام، والخوف يؤدى إلى الجبن، والجبن يؤدى إلى البطش، بطش الحكام، المستقويون فى الأرض، المستأثرون بالسلطة والمال، وأحيانا بالحق الإلهى، والتاريخ يعيد نفسه دوما؛ قلة تحكم وتستأثر بالسلطة والمال والأرض والجاه، وكثرة تُطيع كالقطيع وترعى الغنم وتأكل الكلأ، لم تفتت الرسالات الثروة، ولم تحقق التكافل والتكافؤ، إلا عندما ظهرت فقط، ولوقت قصير، بعد ذلك تناوب عليها الحكام، أصحاب الحق الإلهى، ومازالت تذهب الثروة والأرض والجاه لهم، أو هم يستأثرون بها، والقسط الأعظم من الرعية يكفيها القليل تتقاتل عليه، كابن آوى، تماما كعصور ما قبل الرسالات، وربما كان العدد أقل والثروة أكبر، المحرمات أقل والتكافل أكبر، الكل يأكل ويسكن ويتناسل، الآن الكل يموت من الجوع، الكل يتشرد، الكل يزنى، إلا من كان ذو حظ عظيم، ونفذ إلى نقطة نفوذ أو سلطة، أو استطاع أن ينفذ أكثر إلى أماكن يتحقق فيها التكافل الاجتماعى والمادى والبشرى، ويخف فيها تأثير تلك الرسالات.

نبى الرب، يساوم الرب: "وإلا تصرف عنى كيدهن، أصبُ إليهن". لماذا لا يصرف الله كيدهن عن باقى الرجال، قبل أن يصبون إليهن ويرتكبن فاحشة وإثما عظيما، قبل أن يغضبوا الرب، قبل أن يحتلوا مقاعدهم من النار. نبى الله، المؤيد من الله، الموحى إليه من الله، يضعف ويشترط، فكيف بالبشر العاديين، غير الموحى لهم، غير المؤيدين؛ الا يضعفوا وألا يصبون إليهن؟!

كريستينا

كنت أعرف من خلال حكايات الجهلة ومدعى العلم ببواطنالألأ مور؛ ممن لم يسافروا، وربما ممن سافروا أكثر، أن العلاقات فى المجتمعات المتحضرة علاقات مختلطة وسهلة وسريعة، ويمكن لأى رجل أن يتعرف على أى فتاة ويقيم معها علاقة جنسية هكذا بمنتهى البساطة، عليه فقط أن يذهب إليها، وكلمة فابتسامة فموعد فلقاء جنسي، هكذا ببساطة وكأنه يتسكع فى شارع مخصص للساقطات، الأمر الذى أحسست معه أن كل الفتيات الغربيات أو لألأ جنبيات ساقطات، ويجرين وراء غرائزهن، وأنه بإمكان أى شاب بمجرد نزوله فى أى بلد أجنبى أن يلتقط أى فتاة تستهويه ليلتقى بها فى الفراش فى نفس ليلة قدومه، هكذا، وبكل ثقة، كان يصور لى الكل من العليمين ببواطن لألأ مور ذلك، حتى لألأ فلام لألأ جنبية الكثير منها كان يدعم تلك الصورة وذلك لاعتقاد بصورة البطل الذى يتحدث لألأ ى فتاة وعلى وجهه ابتسامة ولديه بعض خفة الظل والذكاء؛ فتسقط الفتاة ـ أى فتاة ـ صريعة هواه وألمعيته وفحولته ثم تضاجعه فى المشهد التالى. أعتقد أن النساء فى العصر الحجرى كن يحتجن مجهودا أكبر ووقتا أطول للموافقة على مضاجعة رجل بتلك البساطة، حتى نظام لرفيق " البوى فريند " أو الرفيقة" الجيرل فريند "، تم تصويره لى على أنه علاقة جنسية بين شخصين، إضافة إلى إرثى الدينى عن غول الجنس، فكنت انظر للأجانب نظرة مختلطة ومغلوطة، حتى تقدمت للعمل بإحدى المنح لألأ جنبية، وبدأ اختلاطى الفعلى بلألأ جانب، وأول تعارف مباشر لى معهم، بعد تاريخ حافل بسوء الفهم، كان مع مدير المنحة لألأ جنبى ويدعى كلاوديو اسيولى وهو برازيلى فى لألأ ربعينات من عمره يعيش بهولندا ويعمل مديرا مؤقتا للمنحه بمصر. عرفت

بعدما أصبحنا صديقين أنه يبلغ من العمر 48 عاما، رغم قوامه الممشوق وجسده الرياضى، الذى يحافظ عليه بالنوم مبكرا فى ميعاد مقدس والاستيقاظ مبكرا فى ميعاد أقدس، ولعب التنس لمدة ساعة مع صديق له بعد أن ضجر من المشى لمدة ساعة يومياً بمفرده. يستيقظ فى تمام السادسة ويبدأ ساعتة الرياضية فى تمام السابعة وينتهى منها فى الثامنة، يعود بعدها للبيت لينعم بدش دافىء يكون بعده فى التاسعة تماما فى العمل،ويمكن لألأ ى أحد ضبط ساعته على موعد وصوله، وربما ضبط ساعة الحاسب لآلآ لى أيضا، بشعره البنى الكثيف الذى يحافظ على نظافته وتصفيفه؛ فيبدو أقرب لنجوم السينما بقوامة الممشوق الخالى من الدهن وداء البطن المنتفخ الذى يصيب المصريون أو من يعيشون فى مصر، وملابسه التى يحرص على اختيارها بعناية فيبدو أنيقا فى غير مبالغة؛ سواء فى لباسه الرسمى أو الرياضى، كلاهما مريح وعملى، بالإضافة لحقيبة ظهر يحملها دائما وبها كاميرا رقمية وكاميرا تصوير فوتوغرافى. اكتشفت بعد ذلك أن كل لألأ جانب يحرصون على حمل كاميرات رقمية أو كاميرا فوتوغرافية على لألأ قل فهم يحبون ويحرصون على تصوير كل لحظات حياتهم وأسفارهم وتجاربهم وأصدقائهم كذكرى، وحقيبة بها جهاز حاسب آلى محمول يحفظ عليه كل ملفات عمله ويتنقل معه فى العمل والبيت، وكيس بلاستيكى يحمل شعار متروماركت به دائما تفاحة وموزة وبرتقالة وقطعة باتيه أو كورواسان، واكتشفت أيضا أن لألأ جانب لا يشترون الفواكه أو الخضروات بالكيلوات مثلنا، هم فقط يشترون ما يحتاجون إليه طازجا وعند الحاجة ولا يخجلون من ذلك. كان الكيس يحتوى دائما على تفاحة وموزة وبرتقالة وقطعة من أى نوع خفيف من المعجنات وربما بعض ثمرات الخوخ أو المشمش، وهى كلها فواكه استوائية تنمو فى المناطق الحارة، ويفتقرون إليها هناك فى بلادهم الباردة، أو توجد ولكن يشترونها بأثمان باهظة نظرا لألأ نها تستورد إلى بلادهم، كنت أضحك وأمازحه وأخبره كيف يأكل كل هذا ويظل جسمه نحيلا؟ فيخبرنى أنه لا يأكله مرة واحدة، هو يأكل ثمرة كل

ساعتين ويأكل الباتيه أو الكرواسان فى الصباح؛فالنشويات هامة لإلا مداد العقل بالطاقة وخاصة القدرة على التركيز، وبقية الفاكهة تمده بالسكر على فترات متباعدة ولا يأكلها كلها حتى لا تتراكم فى معدته وتختزن فى جسمه وتتحول إلى دهون يصعب تفتيتها والتخلص منها. كنت أتعجب وأُأعجب بمنطقه فى التفكير والتحليل والتعامل مع وقته وجسمه وعمله، كان يحرص على المرور بى فى مكتبى ليلقى على تحية الصباح ويسألنى عن الجديد فى عملى ومجالى ويحرص أن يتخلل المرح الجدية؛ فلا يخلو حديثه فى العمل من بعض المرح. كان يطلب منى إنجاز بعض المهام ويطلب منى أنا أن أحدد وقتا لإلا نجازها ويطلب منى أن أفى بإنجازها فى ذلك الموعد الذى حددته أو قبل نهايته؛ فأنا الذى اخترت وحددت ويجب على الوفاء باختيارى ووعدى. كان يطلب منى ألا أتسرع فى تحديد الوقت، وأن اتريث فى التفكير والتحديد، وسواء أكان الوقت قليلاً أو كثيراً فلا يهمه، ما يهمه هو أن أنهى ما اتفقنا عليه قبل نهاية الوقت، بعد يوم أو بعد شهر، وألا ألجأ إلى الإستناد لأسباب خارجة عن إرادتى إذا لم أتهِ منه؛ فهو لا يحب ذلك، هو يحب أن أفكر وأحدد له موعدا ولو كان بعد سنة، المهم أنه بعد مرور تلك السنة أكون قد أنجزت ما وكلت به أو ما أنا منوط به. كان أحيانا يعرض على أن يقلنى معه فى سيارته إلى أقرب مكان لبيتى؛ كنت أشكره وأركب معه؛ فأنا أتحين الفرص للتواجد والكلام معه، وفى أول مرة أقلنى معه أخبرته إننى أحبه؛ ضحك، وسألنى لماذا أحبه؟ وإننى لم أعش معه بشكل قريب ولوقت كاف كى أحكم عليه وأحبه وإننى لا يجب أن أطلق لألأ حكام على الناس لمجرد أنهم لطفاء أو يعجبوننى أو أننى منبهر بهم، يجب أن أقترب منهم أكثر وأعاشرهم أكثر عن كثب وبعد وقت مناسب؛ عندها فقط يمكننى الحكم عليهم والوقوع فى حبهم أو الحياد فى علاقتى بهم. أصبحت أحب تفسيره للأمور وحكمته وأخبرته بذلك؛ فأخبرنى إن حياته لم تكن سهلة وأنه تعلم فيها الكثير، وإنه نام ليالٍ عديدة فى الشارع على الرصيف بالفعل لألأ نه لم يكن له مصدر رزق أو عمل ولا

يجيد تخصصا أو مهنة وبالتالى لم يكن له مأوى حتى قرر أن يعمل أى شيء ويدخر ويدرس تخصصا مطلوبا يمكنه تقبله وتعلمه بسهولة وحب، وهو ما استمر فى دراسته لثلاث سنوات صعبة متوالية، كاد فيها أن يفر من الدراسة وصعوبتها إلا أن أيام الشارع وبرودة الرصيف كانت تلدغه فيتحمل صعوبة الدراسة والتحصيل والتحضير للأبحاث حتى أصبح شخصا له قيمة وله علم يمكنالالا عتماد عليه والإنتفاع به وبالتالى يمكنهالالا عتماد على نفسه وهو ما حدث فى سن متأخرة تجاوزت الثامنة والثلاثين.

كان لقائى الأول به لطيفا، كنت قد أعددت له سترة جلدية إيطالية الصنع، كنت قد ابتعتها من مكان للملابس المستعملة المستوردة، بعدما جاءت من المغسلة والمدبغة كانت كالجديدة تماما حتى أنه أثنى عليها وأعجب بها وارتحت لذلك الثناء وتلك الأريحية. تكلم معى كثيرا باللغة الإنجليزية وابتسم بعد عشر دقائق من اللقاء وصمت ثم قال لى إنه معجب بى، فأنا أتكلم بهدوء وثقة وأفكر قبل أن أرد وإن إنجليزيتى بالمقارنة بأشخاص كثيرين يعرفهم جيدة، ووافق على إلحاقى بالعمل مباشرة وهو ما اعتبرته مشهدا فى فيلم للخيال العملى وليس العلمى؛ فأنا تقدمت للوظيفة دون توصية من أحد أو خبرة سابقة أو سابقة عمل فى منح أجنبية، وللمرة الأولى أتكلم مع أجنبي لمدة طويلة حتى أننى كنت أجهل عن نفسى قدرتى على إمكانية التحدث باللغة الإنجليزية لفترات طويلة مع أشخاص أجانب.

كان لكلاوديو ابنة تدعى كريستينا؛ فتاة لطيفة تخطت الثامنة عشرة بقليل، قررت الحياة معه وليس مع والدتها فهى تطمئن معه وتحبه وتقتنع بأسلوب حياته وطريقة تفكيره. كنت وكريستينا أصدقاء، كانت تحبنى وتطمئن لى كوالدها، ولأننى كنت صديقا لوالدها وهو أيضا يحبنى ويتكلم عنى كثيراً أمامها؛ كانت كريستينا تقبلنى فى

وجنتي عندما نتقابل كما تفعل معه، وكان هذا أول عهدى بالتقبيل، ورغم أنها كانت قبلة بالوجه، أقرب لتقبيل الصبية لبعضهم البعض إلا أن ملمس شفاه الفتيات على وجهى كان حدثا تاريخيا، لم يقترب منه وجهى للماء لثلاثة أيام بعدها، فقد كنت أخفى بيدي الجزء من وجنتى التى لامست شفتيها، ثم أدركت بعد كل لك تلك المعاناة والحرص أننى يمكن أن أحظى بقبلة مماثلة كلما التقينا؛ فعادت علاقتى بالماء إلى سيرتها الأولى. كانت كريستينا تقبلنى وأحيانا تحتضنى وفى أيام حميمة كانت تتدثر بحضنى وأنا أجفل قليلا وأنظر فى السماء أو إلى أي نقطة بعيدة ولا أدري ماذا أفعل، أو أطرق إلى الأرض وأدعها تتدثر كيفما شاءت ولا أفعل شيئا من جانبى. كنت أحب رائحة شعرها ورائحة جلدها والطريقة التى تتدثر بها فى صدرى، كانت كقطة تمكث قليلا تلتمس دفئا أو أمانا ما ولا تفعل أكثر من ذلك. كان ذلك أيضا أول عهدى بملاصقة الجسد الأنثوى، ولما كنت بشرا وشرقيا وأحمل دماء حارة كما يُشاع؛ فإن تلك الدماء كانت تتصاعد إلى رأسي وإلى مناطق أخرى يصعب ذكرها وأتمنى أن ينتهى التدثر أو يستمر إلى الأبد.

كانت تخبرنى إنها تطمئن إلي كوالدها وتحبنى كصديقها، ولم يكن فارق السن بيننا يجعلنى أبدو كأبيها أو كصديقها كانت تخبرنى إنها ترغب أن تقبلنى ولكنها لا تستطيع؛ أتعجب وأصمت؛ فتخبرنى أن لها صديق وهى لا تستطيع خيانته، نعم خيانته؛ فبمجرد أن تعارفا واتفقا على أن يكونا أصدقاء هى وهو، صار بينهما ميثاق شرف غير مكتوب على أن يكون كل منهما للآخر أمام بعضهما وأمام الناس وكأنهما زوجين، وألا ينزلقا فى علاقات جانبية مع طرف آخر، واذا رغبا فى ذلك فلتكن مصارحة وليترك كلا منهما الآخر.

سألتها:

- هل تحبيه؟
- أجل.
- ولماذا لا تتزوجيه؟
- هو لم يطلب منى ذلك.
- أطلبى أنت منه ذلك.

ضحكت باستنكار وردفت:

- أنـا أنـثى وأخجـل ولا يمكننـى أن أطلـب منـه طلبـا كهـذا. تعجبـت وسألتها:
- أتخجلون مثلنا؟

ضحكت وقالت:

- أجل أخجل, الأنثى أنثى فى أى مكان، وأنا لا يمكننى أن اطلب منه الزواج أو أدفعه لذلك أو أرغمه عليه، هو من يجب أن يقرر ذلك ويطلبه منّى
- وإن لم يقرر أو يطلب؟

صمتت قيلا ثم أردفت:

- نظل كما نحن أو نفترق.
- منذ متى وأنتم أصدقاء؟
- منذ ثلاث سنوات.

أتسعت عيناى وتـأرجحت مقلتـاى فـى محجريهمـا يمنـة ويسـرة وأرتفـع حـاجبى دهشـة وأنا أسألها:

- ثلاث سنوات! ألا تبدو وقتا كافيا ليطلب منك الزواج؟ هزت كتفيها وقالت:

- لا أدرى! ربما لم يحن الوقت،ربما يكون غير مستعدٍ لذلك، ربما لم نفهم بعضنا بصورة كافية حتى نتخذ ذلك القرار.

لم اتمالك نفسى من الضحك وأنا أسألها:

- ثلاث سنوات ولم تختبران بعضكما البعض بعد؟

أبتسمت وقالت:

- أجل؛ البعض يعيشون ثلاثين سنة سويا، ولا يفهمون بعضهم البعض.

كنت أتعجب وأنا أستمع لدفاعها عنه وحفظها لغيبته وموقفه فى عدم الزواج منها وتقديمها لمبررات له وهو يبعد عنها آلاف الكيلو مترات، ولم يفكر بالزواج منها بعد ثلاث سنوات، وعندنا هنا قد نتزوج وننفصل ربما بعد ثلاث شهور!

- لماذا لا تتزوجان بدلا من أن تتصادقان؟

- الزواج عندنا مكلف، وقيد عقائدى لا يمكن الفكاك منه بسهولة إذا تم إلا قانونيا وبصعوبة والقانون يلزم كلا الطرفين باقتسام ثروته مع لآلآ خر فى حالالا نفصال، وهو ما قد يضر بأحدهما أو هو يضر بالفعل إن كان هو فقط من أجتهد فى الحصول على تلك الثروة بمفرده؛ لذا هم يفضلون تفادى وتخطى كل تلك العقبات والمشكلات والإلتزامات بإقامة علاقة واضحة وصريحة مع شخص ما أمام الجميع يكون بمنزلة الزوج أو الزوجة.

تكشفت لى حينها سر تلك العلاقة الغريبة الغريبة التى تربط بين أثنين تحت مسمى ليس بالزواج، وشعرت أنها أفضل من الزواج بكل تكاليفه وارتباطاته وعقده ومشكلاته التى لم ولن يحلها الدين ولا القانون وأنهم اخترعوا بأنفسهم لأنفسهم نظاما للعلاقات يثقون فيه ويعتمدون عليه للحياة سويا يبدو أقرب للكمال من الزواج، وكل

ما يحف به من تكاليف ومصاريف وتجهيزات وتعقيدات ومشاكل، وتمنيت حينها لو أن كريستينا كانت صديقتى، او أن يكون لى صديقة مثلها.

كانت كريستينا فاتنة، ولم أكن أستوعب جمالها بسهولة عندما اقتربت ببساطتها وعفويتها من جسدى؛ فأصبح جمالها وفتنتها بالنسبة لى مُسلّمة وكأنها صديق وليست حتى صديقة. كانت ترتدى ملابس عارية أو شفافة أو ضيقة ليس لعوج فى سلوكها أو أخلاقها وإنما فقط لأنها تحب ارتداء تلك النوعية من الملابس فهى مريحة وتناسبها وهي أيضا لا ترتديها ليحملق بها الآخرون، فهى لا تحب ولم تطلب من أحد أن يحملق بها؛ فلا هى تحملق أو تتطفل على أحد ولا ترغب أن يتطفل عليها أويحملق بها أحد، وعلى الرغم من ضيق ملابسها وأحياناً عريها أو شفافيتها فإنها لم تكن تتغنج أو تسير بطريقة مثيرة أو حتى تتصرف بطريقة غير لائقة؛ كانت تسير بهدوء ولا يعلو صوتها وإذا ضحكت غطت وجهها وكأنها تخجل من ضحكتها، وخيرا كانت تفعل؛ فلو أطلقت سراح ضحكتها لاحتجت يومين للخروج من غيبوبة إثر ضحكتها الذهبية.

كانت كرستينا أنثى فاتنة، تضحك كالأطفال؛ فتمتزج براءتها بأنوثتها فى مزيج مسكر يطيح باتزاني أحيانا أو للحق دائما!
كنت أطلب منها بلطف أن ترتدى ملابس فضفاضة و طويلة عندما نخرج سويا؛ كانت توافق بابتسامة ولم تكن تقبل رغباتى على مضض ، كانت تضحك وتتفهم وتمتثل لرغباتى وكأننى زوجها؛ فتأتى فى مواعيدنا بملابس فضفاضة وطويلة وتفرد ذراعيها أمامى وتضحك وتخبرنى عن رأيى وهل يعجبنى ما ترتدى؟ كنت أبتسم وأصمت ونتحرك سويا. كانت كرستينا تحب تجربة الأكلات المصرية التى كنت أنا شخصيا لا أحب تجربتها؛ فأنا معدتى حساسة وتاريخى مع الأكلات المصرية الشعبية

حافل بعدد لا أذكره من حالات التسمم حتى اننى أحيانا كنت أطلب المصل قبل الطعام ، وهو ما حاولت تنبيهها له؛ فكانت تضحك ضحكتها الذهبية.

ولأن كرستينا كانت تحب أن تكون تجاربها معى فقد كنت أمتثل لرغباتها كما تمتثل هى أيضا لرغباتى فى تبديل ملابسها أو عدم تقبيلى أمام المارة فى الشارع، ولو على سبيل الدعابة أوالالا نتشاء، فأقترحت عليها تجربة وجبة كشرى مصرى فى مطعم يدعى هيلتون بميدان التحرير وهو مطعم جيد يؤمه أجانب عدة، كنت قد جربته ولم أتسمم بشكل كلى. كنا نحب الجلوس فى الطابق العلوى بجانب النافذة، كنت وكرستينا نحب مشاهدة الشارع ومراقبة المارة.

عندما أتى الكشرى كانت كرستينا سعيدة، تنظر إليه وتضحك وتسألنى عن مكوناته، وعن الصلصة والشطة والليمون وكل شىء، حتى أحسست أننا لن نأكل كشرى وأننا مقبلون على تناول طعاما فرنسيا فى فندق الهيلتون وليس فى محل كشرى الهيلتون.

أنا كنت لا أحب أن توضع صلصتى على طبق الكشرى خاصتى، فكنت أطلب الصلصة منفصلة وبكمية كبيرة وأوزعها بنفسي ببطء وتساوى على سطح الطبق كله، ثم أرج الزجاجة التى تحتوى على سائل الليمون المضاف إليه قطع صغيرة من الثوم جيدا وأضع كمية كبيرة من سائل الليمون بالثوم تكاد تجعل وجبة الكشرى تتحول إلى شوربة كشرى، وأضع كمية وفيرة من معجون الشطة الحارة على سطح الصلصة. أنا كنت أحب أن أضع صلصة الطماطم ومعجون الشطة الحارة بوفرة على سطح الأرز والمكرونة فى طبقى وأبدا لا أخلط مكونات الكشرى ببعضها كما يفعل الكل أو معظم الناس، كانت كريستينا تنظر إلى وأنا أفعل ما أفعل وكأننى أقوم

بتجربة كيميائية، وتسألنى عن كل ما أفعله وأنا مندمج وكأننى بالفعل أعد تركيبة كيميائية.

كانت كرستينا تقتدى بى فى كل ما أفعل وتنظر حولنا من وقت لآخر وتخبرنى أن لا أحد يفعل مثلى، أخبرها ببساطة، وأنا مندمج ولا أقاطع ما أفعل؛ إننى أحب أن أتناول الكشرى بتلك المكونات وبتلك الطريقة، وإننى لا أحب أن أخلطه وأفضل أن أقتنص منه جزءا صغيرا يحمل معه الصلصة والشطة والثوم فى كل ملعقة. كانت ضحكاتها تتعالى وتخبرنى إننى لا أُصَدّق وإنها ستفعل مثلما أفعل، ولم تمزج طبق الكشرى خاصتها، وتعاملت معه مثلى وهى تنظر إلى بسعادة وتتذوق باستمتاع.

كانت كرستينا تحب التسكع على كوبرى قصر النيل مرورا بدار الأوبرا ثم كوبرى الجلاء، كانت تحب ذلك الجزء القديم الجميل الراقى من مصر، كانت تحب أيضا أن تحتسي معى الشاى كعادة أبناء البلد على ضفاف النيل بجوار رجل يقدم الشاى على عربة لطيفة يحرص على نظافة معداتها وأكوابها حتى يستبقى زبائنه، وكنا من زبائنه. كانت عربته بجوار كوبرى الجلاء وعلى مرأى من فندق شيراتون، كانت كرستينا تحب تناول الشاى مثلى بدون سكر تقريبا، فجلسنا نتكلم ونحتسى الشاى سويا، واقتربت منى تستدفأ بى؛ فقد كان الجو شتويا قارصا، كانت تتحدث إلى وعينيها مثبتة فى عينى على غير عادتها، وصمتت قليلا، ثم قالت:

- إنا أرغب بمضاجعتك، لمرة واحدة.

لم أتوقع الطلب وربما صدمت؛ فعلاقتى بكريستينا محددة منذ البداية وأنا لم أفكر بها بهذا الشكل من قبل، ربما وددت لو أقبلها من شفتيها أو أحتضنها بقوة؛ أما أن أضاجعها فهذا ما لم أفكر به أو أخطط له، ثم إنها صغيرة فى نصف عمرى تقريبا

وأنا لا أعاشر فتيات صغيرات، كما أن والدها صديقى وأنا اعتبرها أمانة، كل هذا كنت أفكر فيه وأنا صامت وهى لا زالت تنظر فى عينى وتنتظر الجواب،ولمَّمَّا لم أجب اعتبرت صمتى موافقة أو هى وافقت لها ولى ضمنا كمن تدعونى لعشاء أو لحفل. حاولت الهرب؛ فابتسمت وقلت:

- يبدو أن تأثير الكشرى بدأت أعراضه فى الظهور عليك. ضحكت وقالت:
- ربما؛ وربما صار بى جزء مصرى.

صمت ثانية وهويت إلى أغوار نفسي أفتش بها عن رغبة فى كريستينا كانت موجودة ولم تكن تفصح عن نفسها وانزعجت عندما وجدتها، وتمنيت لو لم أجدها.

تطلعت هى إلى فندق الشيراتون وقالت بحزم كمن حسم أمرا:

- هيا؛ سوف نقضى الليلة هنا، أنا أحمل فيزا كما أنهم يعرفوننى ووالدى هنا، ولن يمانعوا فى مشاركتنا غرفة. رددت ورائها:
- والدك!
- أجل والدى،لا تخشَ من استيائه او استنكاره، لن أخبره عن ليلتنا تلك ولن يعرف بها.

كانت كرستينا قد عقدت العزم بعد أن حاصرتنى وكان بى ميل للاستسلام. حجزت لنا الغرفة بمنتهى البساطة وصعدنا معا، وتحولت فجأة إلى امرأة تعرف ما تريد وماذا تفعل التصقت بصدرى فى المصعد لأول مرة بطريقة مختلفة عن كل المرات التى احتضنتنى فيها وأخذت تتشمم ملابسي ورائحة جسدى، دلفت إلى الغرفة وأخبرتنى إننا يجب أن نغتسل جيدا، تعطرت وعطرتنى ولم تقربنى فى الحمام وكأنها كانت تحتفظ بطقوس الليلة لمكان آخر، ألقتنى برفق فوق السرير العريض الوثير

وأخبرتنى أن أستسلم لها ولا أبادر؛ قبلت صدرى وباركت مكان القبلة بجبينها وتحسستها بأنفها وعيناها ووجهها، كانت تقبل جبينى وعينى وفمى بهدوء وتمسح وجهها فى كل جزء تقبله، كانت تنظر فى عينى من وقت لآخر وتحرص على التنفس من فمى، كانت تلتصق بجسدى وتعتصرنى بشدة، كمن ترغب بالنفاذ إلىّ، كانت تفعل كل الأشياء وتتلذذ بذلك وأنا صامت ومتابع كنت مستسلما لها، كنت أراقب انفعالات وجهها وشعرها الذهبى الكثيف المنسدل على كتفيها ووجهى، كنت أراقب جسدها للمرة الأولى عاريا، تكاد عروقه تطفو فوق بشرتها الوردية الشفافة، كانت كعادة الأجنبيات تحتفظ بالزغب على جسدها وكنت أحب ذلك ولا أستاء منه، كانت تحب عندما أبلل ذلك الزغب بلسانى أو أقضمه برفق بين أسنانى وأحاول نزعه، كانت تضحك وتخبرنى إن الرجال الشرقيين لا يحبون النساء بزغب وإننى ولابد لست شرقيا، ابتسم وأخبرها إننى لا شرقى ولا غربى وإننى شرّبى، تضحك لمزيجى ودعابتى ثم تصمت وتردف:

- تولنى الآن.

كانت كرستينا تتكامل معى بشكل متساو وكأننا توحدنا من قبل كثيرا، كانت تحرص فى كل الأوضاع أن تكون مشاركة وربما من يدير الوضع، كنا نقبل على بعض بنفس اللهفة، ونبادر بنفس الأشياء فى نفس التوقيت ونستطيبها ونتمهل ونبتكر ونكرر، كنت قد أعدت تقبيل جسدها من قمة رأسها حتى اخمص قدميها خمس مرات وفعلت هى المثل، كانت تقبل لى ظهرى وتدلكه برفق ثم تقبله مرة أخرى وتضع عليه نهدها وتحتضنى برفق قوى، كانت فى نصف حجمى إلا أننى أحسست أنها تماثلت بى فى الحجم، كنت لا أسأم ولا أتوقف وكانت هى أيضا، كانت تقترب من عينى وتقبلها من حين لآخر وتلثم فمى من آن لآخر، كانت تلعق بطرف لسانها الجزء البارز من رقبتى او ما يعرف بتفاحة آدم، وتقضمها قضما خفيفا وتضحك، كنت

ماهرا فى تدليك الرقبة والكتفين والظهر وكانت تحبنى أن أفعل، كانت تبتعد عنى كلما شعرت أنها اقتربت، وعندما رحل الليل وزحف النهار وبدأت الشمس تتلصص علينا احتضنتنى بقوة واكتملت بى، وكنت لا أرغب أن أفعل، فقالت:

- لا ترحل.

كانت حريصة على مائى الدافق وترغب أن تحتفظ به وكنت أحتاط لذلك إلا أنها تمسكت بى ونظرت فى عينى وقالت برجاء وحزم:

- لا تفعل.

لم تنتفض من فوقى ولم تدعنى أتزحزح من تحتها؛ نظرت فى عينى برجاء وألصقت جبهتها بجبهتى وأنفها بأنفى وانتظمت انفاسها واكتملت بى كما لم تكتمل من قبل؛ فاستودعتها مائى وأنا حريص عليها أكثر منها. مكثت ملتصقة بجسدى ترتطم ضربات قلبينا ببعض وتتهدج أنفاسها فتلفح وجهى وأذنى، احتوت وجهى بكلتا يديها ونظرت لعينى طويلا بثبات نظرة امتنان، وقالت:

- أشكرك.

وسحبت الغطاء فوقنا ولم تنفك عنى، التئمت فى صدرى كقطة وعادت إلى حجمها الطبيعى؛ فصرت أحتوى جسدها كله. فقالت:

- كان يجب أن التقيك من قبل.

طفا شبح ابتسامه على وجهى وقلت:

- أنا كنت فى مثل عمرك الآن عندما ولدت أنت.

ضحكت وقالت:

- أنا سعيدة بتلك الليلة الواحدة. أنا أحس أننى ملكة، وأننى توجت اليوم.

ابتسمت وصمت وكدت أخبرها إننى سعدت بها أكثر منها. التقطت سماعة الهاتف وطلبت إفطارا قدمته لى عندما جاء، وأنا لا زالت بمكانى على السرير لم أتحرك

وكأننى ملك. جلست بجانبى وأخذت تطعمنى بيديها وأحيانا تشاركنى الطعام بفمها، كما تطعم العصافير صغارها وبعد لإلإ فطار نظرنا لبعضنا البعض ثم حنثنا بوعد المرة الواحدة، وبعد تسعة أشهر تماما؛ أنجبت كريستينا آدم .. ابنى.

لسبب غامض لم تزعجني فكرة أن يكون لى طفل من كريستينا وحتى هى لم تلزمنى بالاعتراف به أوالإنفاق عليه. وكان آدم طفلا جميلا، لا أعرف لماذا اختارت له ذلك الالا سم، وعندما سألتها؛ قالت إنه اسم إنساني يمكن أن يكون شرقيا أوغربيا أى أنه يحمل شرقيتى وغربيتها. عندما حملت آدم بين يدى انتابتنى عاطفة جارفة لم أكن أتوقع أنها بداخلى، كان آدم طفلا جميلا عشقته منذ إطلالته الأولى. وكان كالأطفال العاديين لا يبدو عليه أنه ابن خطيئة. كان يبتسم فى وجهى ويتحسس فمى ووجنتى بيديه الصغيرتين وكأنه يعرف أننى والده ويريد أن يخبرنى بذلك. كنت أقبله وأرفعه وأحتضنه على كتفي الأيسر وأضعه فوق قلبي مباشرة فأشعر أننى لست بشرا وأننى أحمل ملاكا. كان آدم جميلا وطيبا وكنت أستمتع به كما لم أستمتع بشيء من قبل فى حياتى، وعندما التصق بى اكتشفت السبب الغامض الذى لم يزعجنى من فكرة وجوده؛ فآدم من أم اجنبية ويمكنه الحياة هناك حيث يمكن أن تعيش كرستينا فى لندن مع أمها أو بمفردها، وكرستينا لا دينية وبالتالى سوف يصبح آدم بلا دين ويمكنه حينها عندما ينمو ويكبر وينضج أن يختار، سوف تكون له هناك فرصة الاختيار، لن يفرض عليه دين، لابد أن يقتنع هو بفكرة الدين، لابد أن يختار هو الدين بناءً على العقل لا بناء على لإلإ رث أو النقل، وهى فرصة كنت أطمح وأتمنى أن أحظى بها أنا، وقدمتها لنا كرستينا أنا وآدم على إناء من ذهب دون أن تدرى، وهو ما جعلنى لا أثور أو أغضب أو أستنكر؛ ربما استنكروالدها قليلا، إلا أنه فى النهاية استسلم لابنته التى كانت فى الواقع أقوى مما كنت أتصور.

كان آدم يشبهنا تماما أنا وكرستينا؛ فعيناه سوداوان تماما مثل عيناى، يكاد يحتل سوادهما بياضهما باستثناء نقطتين بيضاوين على جانبى الدائرتين السوداوين، وكأنهما أزرار سوداء كبيرة مستديرة لمعطف ثبتت على بياض عينيه وشعرأسود ناعم وغزير مثلى يكاد يغطى جبهته وعينيه، وهو ما يبدو غريبا لوليد، وكانت أنفه ـ كأنف أمه ـ فينيقي دقيق وفمه كفمها صغير وأنيق. كنت أحب اللعب معه والاستئناس بوجوده، كنت كلما قابلت كريستينا أحتفظ به أنا حتى يرحلا؛ فأضعه فوق قدمى ليبدأ فى التحرك كَدُمية فيميل للأمام واليمين واليسار ويحاول تلمس لألأ شياء واكتشافها أو التشبث بالمقاعد أو المائدة. كنت أحب أن أراه يفعل ذلك، كنت أحب أن أراه يحاول ويحاول ولا يكف عن الحركة والمحاولة، كنت أحب إصراره؛ ذلك الإصرار الذى لا يتسلل اليه يأس، كنت أحب مشاهدة رأسه وظهره من الخلف ومتابعته، كنت أحب أكثر أن أحمله ولجعل وجهه مقابلالا لوجهى؛ فيبدأ فى محاولات مستميتة للقيام أو الوقوف على قدميه للوصول إلى صدرى ووجهى، كان يحاول أن يتشبث بقميصى بقبضته الصغيرة القوية ويقبض على أزرار قميصي بفمه، فأفتح لألأ زرار له. كان ينظر لى ويمتن أحيانا ويعاتبنى أحيانا على أننى أساعده؛ فهو يرغب أن يصنع ما يريد بنفسه؛ فكان يتغاضى عن مساعدتى ويكمل ما بدأه. يتسلل إلى صدرى فيقبض بقبضته الصغيرة القوية على شعر صدرى ويقضمه بفمه وأسنانه الحادة الصغيرة ويجذبه بشدة، كنت أتألم وأضحك وكانت كرستينا تسقط من الضحك من تصرفاته وتخبرنى إنه يشبهنى حتى فى لغة الجسد ويبدو أنه لن ينتظر طويلا حتى تكون له هو الآخر كريستينا صغيرة. كان أحيانا يقترب من حلمات صدرى ويقضمها؛ فأضحك بصوت عال وأخبره إنه ضل الطريق وإنه لا يوجد له طعام هنا، كان ينظر إلى ويقطب حاجبيه قطبة خفيفة وكأنه يعاتبنى ويخبرنى أنه ليس غبيا وأنه لم يكن يبحث فى حلمتى عن طعام، هو فقط كان يستكشف الفرق بينى وبين أمه. كنت أحيانا أجرده من ملابسه وأحب أن أتطلع إلى جسده الصغير القوى الجميل. كان آدم طفلا قويا،

قدماه ويداه كانتا قويتين وكان له بطن مقبب ومستدير، كنت أحب أن أقبله فيها وكان يقلدنى فيقبل بطنى العارية أنا أيضا؛ كنت أجرده من ملابسه وأتجرد معه أنا أيضا من ملابسي. كان أحيانا يجفل فى سبات عميق على صدرى وهو عار، فلا أتحرك من مكانى ولا أحرك ساكنا حتى يستمتع بغفوته ويفيق منها، حتى لو ظل ساعتين على تلك الحال فلا أوقظه أبدا ولا أعطيه لكرستينا.

كانت كرستينا تفرح بذلك وتنظر لى وتبتسم. كانت ترقد بجانبى، تنظر فى عينى بحب غريب، ونتبادل الهمس والقبلات سويا حتى يستيقظ، كانت تناولنى طعاما خفيفا فى فمى وأنا فى مكانى حتى لا أتحرك وأوقظ آدم، كانت تقرب الماء من فمى حتى أشرب عندما أعطش، وتمسك لى كأس العصير وتضع الشافطة بفمى حتى يمكننى تناول عصيرىوالالا ستمرار والاستمتاع بلقائنا وحديثنا. أخبرتنى إنها ترغب أن تعيش مع أمها بلندن وأن تكمل دراستها بأكسفورد؛ رحبت برغبتها فأنا نفسي كنت أتمنى أن أكون أحد طلبة أكسفورد، أخبرتنى أنها سوف تأتى من وقت لآخر لترانى ولكى أطمئن على آدم؛ قلت لها أن تكون سعيدة وناجحة وتفعل ما تريد وأن تطمئنى باستمرار على آدم، قالت إننى يمكننى الانتقال والحياة بلندن لو رغبت؛ شكرتها ولم أكن أرغب؛ فأنا كنت قد أدمنت الحياة بالعالم الثالث بكل حماقاته وتناقضاته، ربما يمكن لآدم أن يبدأ من جديد هناك وهو مازال صغيرا، يبدأ من حيث كنت أرغب أن أبدا أنا.

نسمة

كانت نسمة، فتاة بسيطة وجريئة وصريحة، بروحها وعقلها وثقافتها التي كانت أقرب إلى التحرر بدون إسراف أو ابتذال، كالأوروبيات فى انطلاقها واستقلالها، كالشرقيات فى طيبتها ووداعتها واحتياجها لشخص عاقل متفهم يستوعب ذكاءها وعقلها واستقلالها وخصوصيتها وانطلاقها، يتعامل معها بفهم ووعى، يتبين الفرق بين الأبيض والأسود، يتحرك بهدوء فوق الخط الفاصل بين انطلاقها واستقلالها، بين حريتها وخصوصيتها، بين رغبتها فى تلمس واكتشاف الآخر وبين الاصطدام بالآخر، بين أن يلمسها الآخر بحب لا بشهوة ، بين الإرث الذكورى الشرقى المتشدد المزدوج والرجل المتحضر المسكتشف للعالم والناس والطبائع. كانت تجمعنا لقاءات فى القاهرة الفاطمية ، حيث مسجد الحسين والجامع الأزهر ومنطقة والغورية وباب النصر وباب زويلة وبيت الهراوى؛ ذلك المكان العتيق الذى تُدّرس فيه الموسيقى العربية الشرقية الأصيلة فى أجواء تاريخية وتراثية تجعل البشر ينتقل بمشاعرهم إلى عز القاهرة وقت أن كان للقاهرة عز، بمبانيها العريقة الرحبة التي تتردد فيها أنفاس أرواح الأجداد ممن ملئت سيرتهم الأرض وشغل ذكرهم التاريخ ، كان لبيت الهراوى استراحة خارجية عربية الطراز يمكن الجلوس بها واحتساء شراب أو تدخين النرجيلة ، كنت أتعجب كيف يسمح بدخول النرجيلة واستخدامها على المشاع فى ذلك المكان المكلل بالهيبة والذى تصدح فيه طوال الوقت نغمات الموسيقى العربية الأصيلة، تلك الموسيقي الراقية العذبة التي تتسلل إلى الروح وتكاد تحلق بها فى المكان.

كان يحلو لنا اتخاذ ركن بتلك الاستراحة والاستدفاء بإناء من مشروب الشاى الممزوج بنبات النعناع الأخضر الطازج الطيب، تتخلله أحاديث شتى بينى وبينها، عنى وعنها وعن الحياة والدين والأدب والسياسة والفلسفة والصوفية والحب والجنس وتتكرر أسماء ابن عربى وابن الرومى وابن رشد وسارتر وهيكل وبوشكين وهيمنجواى ونجيب محفوظ وعبد الناصر والسادات وغاندى وبوذا وزرادشت والفلسفة الوجودية والشيخ الشعراوى والإمام الغزإلى والإمام على بن أبى طالب وماركيز وباولو كويليو وإيزابيل الليندى وأحلام مستغانمى وسيجمند فرويد والطيب صالح، كانت بسمة قارئة جيدة ونهمة تعشق القراءة وتجيدها وتستمتع بها، تتسرب الكتب التي تقرأها إلى عقلها كأسفنجه قاسية لا تتخلى عنها بسهولة ، كانت لها آراء ربما أصابت فى أصحاب تلك الأسماء وما كتبوه، كانت مشروعا مبشرا لكاتبة واعدة كاد أن يعبث به المتثاقفون ممن حاولت الاختلاط بهم فى محاولة للاندماج فى مجتمع الثقافة والمثقفين للاستفادة وتكوين رصيد فى بنك العلاقات البشرية الأدبية ولكنها نجت بأعجوبة من ذلك المطب أو الفخ الثقافى؛ فمجتمع المتثاقفين مجتمع غيور وغبى وتافه؛ معظم أعضاؤه ـ إن لم يكونوا كلهم ـ مرضى بشكل أو بآخر بمرض نفسي عضال ربما أدركوه واستمتعوا بوجوده فيهم إما أنانيون أو ساديون أو سطحيون والسليم منهم مصاب بانفصام فى الشخصية يتودد اليها فى البداية وبمجرد أن تنطلق فى الحديث معه يبدأ فى التودد إلى جسدها بمنتهى الفجاجة والغباء.

ربطتنا صداقة تقاطعت وتواصلت، إلا أنها لم تكن مسببة؛ فلا أنا كاتب شهير ولا أنا فى مثل عمرها أو قريب، كل ما فى الأمر أن بشريتنا تقاربت، فلم تتملقنى ولم أتودد إلى جسدها. كنا نتكلم، نتكلم فحسب، نتجاذب أطراف الأحاديث، نتقابل ونسير سويا بدون تخطيط أو هدف وأحيانا بتخطيط وهدف. كنا نأكل حين نجوع ونستريح حين نتعب، كنا نتكلم كرجلين أو امرأتين بلا خوف أو خجل، كانت تعرف أننى هوائى وأعشق النساء فى

المطلق ولم تكن تكترث ولم يشغلها ذلك، كانت تجد فىّ متنفسا لروحها وأفكارها وتساؤلاتها، وأنا أيضا كنت أتكلم معها وكأنى أحدث نفسي، كنت أحيانا أثنى على ما يطيب لى من ثيابها فتستنكر هى وترد إن ذوقها بشع وإننى أجاملها؛ فأخبرها أن تلتزم دائما بذلك الذوق البشع. كنت أتعجب أحيانا من الطريقة التي تسير بها ولم يكن يثيرنى جسدها وكنت أستلطف ذلك، كان لعينيها بريق دائم يكاد يرفع راية: "هنا تربض امرأة ذكية وموهوبة وتحمل الكثير فى عقلها وقلبها وروحها"؛ بريق يمنع نفسه من القفز بصعوبة، متحفز دائما يرغب فى الانقضاض والتعلم والانتشار، كانت عنيدة ومكابرة ومجادلة ترهقنى فأستسلم؛ فأنا لا أحب الجدل، أفضل الاستسلام على الجدال، كنت أعجب بروحها المتوثبة المستنفرة، وجدالها المرهق الذى لا يكل ولا يقل.

كانت بسمة تدرس العزف على العود فى بيت الهرّاوى. كانت وهى تعزف يتثبت يقينى من أن الموسيقى ليست حراما؛ فكيف بكل تلك الراحة التي أحسها وأستمتع بها أن تكون حراما ؟ كيف يحرم الله ما يطيب النفس ويريحها ويسعدها؟ كيف يخلق الله الموهبة على العزف ثم يحرمها؟ كيف يخلق الموسيقى بكل سحرها وجمالها ثم يحرمها؟! الواضح أن أئمة الفقه استولوا على الدين تماما ككهنة المعابد وقساوسة الكنائس؛ يفصلون ويحذفون ويزيدون وينقصون حتى اختلط الأمر على الناس وتشتت إيمانهم بين الشك واليقين، بين الحلال والحرام، بين حكمة الله فى الخلق وحكمة الفقهاء فى تأويل الخلق، الله خلق الجنس ولم يحرمه، حرم فقط الزنا أما الجنس فحلال، وهى حكمة الخالق أن الأشياء فى أصلها حلال ومباحة والتعامل مع الأشياء هو الذى يضفى عليها صفة التحليل أو التحريم؛ فالسكين ليست حلالا ولا حراما؛ الحلال والحرام يتحدد تبعا لاستخدام تلك السكين؛ فهى حلال عندما تستخدم فى إعداد الطعام وحرام عندما تستخدم فى القتل، كذلك كل الأشياء ليست حلالا على إطلاقها أو حراما على إطلاقها. عندما خلق الله للبشر موهبة الشِعر والصوت

الحسن لم يحرم الشعر ولا الصوت الحسن ، التحريم يأتى من المغالاة فى الشعر؛ كأن تهجو، أو المبالغة فى الطرب؛ كأن تبتذل.

كانت بسمة تحب لقائى وحديثى ورؤيتى، كانت تتصل بى دائما عندما يضيق عليها الأمر وتحتاج لمن يسمعها، كانت تتصل بى فنلتقى وكنا عندما نلتقى نرتدى دائما نفس الألوان دون ان نتفق فنضحك كلانا من ذلك. كنا نحب ارتداء الإسود والرمادى. عندما قابلتها للمرة الأولى أخبرتها أنها لفتت نظرى بذوقها فى اختيار الملابس وألوانها فقد كانت ترتدى قميصاً وردى اللون وبنطالا رمادى مريح وفضفاض يظهر من أنوثتها أكثر مما يخفى كانت محجبة وتعتنى بحجابها وطريقة عقده حول رأسها ورقبتها؛ فيبدو تكوينه جميلاً ويضفى على وجهها حشمة وأنوثة محببة ، تعارفنا فى مسابقة للقصة القصيرة كانت قد شاركت بها واتت بمفردها لتستبين النتيجه، تكلمنا وتعارفنا وكسبت فيها المركز الثانى وكانت سعيدة جدا بالفوز وبالجائزة المالية ووعدتنى بغداء فاخر لم يتحقق.

تكررت لقاءاتنا بعد ذلك ، كان يوجد مقهى بجانب الجامع الأزهر على الشارع الرئيسى تماما عربى الطراز ولطيف التصميم. سألتها إن كانت ترغب بالجلوس به؛ فرحبت بذلك. طلبت برادا من مشروب الشاى وهو أعشاب خضراء تجفف حتى تصبح سوداء اللون ويتم تسخينها مع الماء فى إناء من المعدن الأبيض وتأتى معه أعواد من نبات النعناع ذى النكهة الذكية، وطلبت نرجيلة بطعم فاكهة التفاح وطلبت هى فنجان قهوة. كانت نسمة تحب مذاق القهوة جداً وأعجبها بشدة طعم القهوة التى يقدمونها فى تلك المقهى ، كنت أنا من يتكلم تقريبا طوال الوقت وهى تنظر فى عينى وتبتسم لم أكن أسألها عن سر ابتسامتها ، كنت أعرفه ، كانت تفرح وهى معى ، وتطمئن ، كانت تحب حديثى ، وطريقتى فى الكلام ، كنت أتكلم معها بحماس وصدق وحميمية ، رغم أننى بالأصل كنت قليل الكلام ، كنت كمن يعوض لها ما فقدته من نصح لم أحظ به ، كنت أتكلم وأندمج وأحرك يدى وجسدى فتضحك

من اندماجى وتضحك أكثر من تعليقاتى الطريفة التلقائية التي لا تنتهى ، كنت أصمت لأتلقى نفساً عميقاً من دخان النرجيلة وأخرجه ثانية من فمى؛ فأبدو كقاطرة بخارية أو مدخنة لمصنع قديم ، كانت تتطلع إلى وأنا أدخن كمن يأتى سحراً ، وتنظر أكثر لى والدخان يتصاعد ويتصاعد من فمى بكثافة وأنا أجعل عنقى على استقامته وفمى للسماء وأخرجه هكذا ، كنت أحب أن أخرج الدخان هكذا وعنقى على استقامته وفمى لأعلى وكانت هى تتعجب من طريقتى تلك فى تدخين النرجيلة وتخبرنى بذلك:

- أنت تدخن النرجيلة بشكل عجيب.

— أنا فقط أحب أن أتلقى نفساً كثيفا عميقا من التبغ المحلى بطعم التفاح وأحب أن أصمت وأنا أخرجه بهذه الطريقة ، أنا لا أحب أن أتكلم وأنا أتلقى نفسا وأخرجه وأنا ادخن النرجيلة.

تضحك وتقول:

— أنت تفلسف حتى أبسط الأشياء!

— أنا لا أفلسف شيئاً ، أنا فقط أفعل الأشياء كما أحب أن افعلها ، لا كما يجب أن تتم.

كنت أحياناً أتعب من الكلام فأصمت وأخبرها أن تتكلم

فتضحك وتقول:

— أنا أحب أن أنصت أليك.

— و إنا الآخرأرغب أن أنصت إليك.

— أنا لا أجد ما أقوله أو ليس لدى ما أقوله.

— لا أحد ليس لديه ما يقوله ، فقط تكلمى وستجدين الكلام يتواتر على ذهنك.

— أنا أشعر أحيانا أنى موهوبة وأرغب كثيرا فى الكتابة وأحب أن أكتب وأشعر أن لدى الكثير لأقوله إلا أننى لا أعرف كيف أقوله أو أشعر أحيانا أنه لا قيمة له ولا فائدة منه.

- أنت بالفعل موهوبة وإنا أحب صراحتك وأسلوبك فى الكتابة، عليك فقط يجب أن تتخلى عن نصائح النصحاء المبسترة وتبتعدى عن ما اصطلح المثقفون رجإلا ونساءً على تسميته بالأدب النسائى فلا يوجد أدب نسائى وأدب رجإلى يوجد فقط أدب إنسانى وأنت إنسان لذا يجب أن تكتبى ادبا؛ أدباً يفيد أو يمتع أو يخبر ، وأن تبتعدى عن تجارب النساء الشرقيات فى الكتابة فكلها إما تكره الرجل أو تدينه أو تهاجمه أو تعبر عن تجربة شخصية مؤلمة أو قاتمة ليس بها أى متعة أو فائدة، و لو أحبت فيمكنك أن تطلعى على أدب ايزابيل الليندى أو ستيفانى ماير أو روندا بايرن فهن نساء معاصرات ويكتبن أدبا انسانيا يقرأه الرجال قبل النساء ادبا انسانيا يتناول التجربة الإنسانية وليس التجارب الشخصية، أدب ممتع ومقنع ومبهج، أدب ساحر وجديد وخلاب، أدب يتطرق إلى أماكن لم يتطرق اليها الأدب من قبل.
- إن الأدب النسائى الشرقى الذى حاولت الإقتداء به أصابنى بالإكتئاب والضجر وحتى الكاتبات أو الصحفيات التى قابلتهن أو صادفتهن إما مغرورات أو قابلننى بصلف وسخفن من موهبتى واعتبرننى ليست تلك الموهوبة التي أعتقدها فى قرارة نفسى وثبطن من عزيمتى.
- عليكى ألا تلتفتى لكلام أوتسخيف أو تثبيط أحد. أنت موهوبة وكل ما عليك أن تثقى بموهبتك وتسيرى بهدوء وبطء فى طريقك وسوف تصلى إلى ما ترغبين وما تحبين أن تصلى إليه، هىُ سّنة ثابتة فى الحياة،أن من يتخذ مسارا ويصر عليه، لابد أن يصل فى نهايته إلى ما يريد ، وأنت عليك أن تسيرى بهدوء وثقة وثبات ولا تلتفتى للمغرورين أو المحبطين ولا تتوقفى عندهم، فقط أقرأى وأكتبى، لأنك تحبين أن تقرأى وتكتبى، الموهوبون الناجحون نجحوا لأنهم آمنوا بأنفسهم وبموهبتهم، كان يؤدون موهبتهم لأنهم يحبون تأديتها، لأنهم يستمتعون بها وبتأديتها، صاحب الصوت الحسن يغنى لأنه يحب أن يغنى،

يحب الغناء، يستمتع بما يقول، يستمتع بما يفعل، ولا يفعله لأن احداً لابد أن ينصت أو يستمع، وفى النهاية سوف يجد ألف من يأتى حتى عنده لكى ينصت ويستمع لموهبته الصادقة الفريدة الجميلة ، العازف يعزف لأنه يحب العزف وليس لأن هناك من يستمع لعزفه ، الموهبة غريزة وليست مهنة ، أنا أكتب لأننى أحب أن أكتب، أنا أكتب لأننى أجد نفسي وراحتى فى الكتابة ، أنا أغنى أو أعزف أو أرسم لأننى أجد نفسي وراحتى وكمالى فيما أفعل ، وليس لأن الناس تقبله أو ترفضه أو تنقده ، تقدير الناس لما أفعل مهم ، إلا أن تقديرى لما أفعل أهم وأهم.

كانت بسمة تنصت لكلامى وكأننى هندى أحمر عجوز يربض تحت شجرة عتيقة مقدسة ويتحلق حول نيران أغصان جافة ويرتدى فراء دب اصطاده فى شبابه بحربته وحكمته فقط.

كنت أسمع عن المستحيلات مثل العنقاء والغول والخل الوفى أما أن أواجه إحدى تلك المستحيلات فذلك ما لم يكن فى أسوإ حساباتى رغم قدرتى المذهلة على تقبل الأمور أيا كانت غرابتها. علمتنى الحياة ذلك وعلمتنى حياتى ذلك أيضا أن الأمور على غرابتها واستحالتها قابلة للحدوث كهذا بكل بساطة وربما ببساطة أكثر من حدوث المستحيل نفسه وكأنك تخرج لسانك من فمك وهو ما فعلته بى نسمة.

فى آخر جلساتنا وبعد حديث طويل عادى حول أمور شتى كان يلوح فى عينيها امرٌ ما يبدو كجواد برى لا يرغب فى الترويض أبداً، وتبدو كمن ترغب فى إلقاء طن من الألم والحيرة، ولا تعرف كيف تتخلص منه أو أين.

أخبرتها أن تثق بى، وتلقى ما عندها؛ وليتنى ما فعلت. فلقد إنطلقت فى الحديث وأستفاضت.

- هناك أمرا يقلقنى ويؤلمنى ويسيطر على وربما يدمر حياتى، وأنا أواجهه بمفردى ولا يمكننى أن أشارك فيه أحداً، فأنا للمرة الأولى أواجه أمراً مثله، ولم أعد أقوى على مواجهته وحدى، ولا أستطيع إطلاع أو توريط أهلى أو أى أحد فيه وأخشي أن لو أخبرت أحداً ألا يتفهم أو أخسره للأبد.

كنت أتوقع الأمر إلا أننى لم أتوقع أن يكون بهذا الشكل وتلك الكيفية وهذة التفاصيل. أخبرتها أن تجربنى؛ ترددت وصمتت ثم استحلفتنى وأنا عادة لا أقسم على شيء وأقسمت.

- أنا لست عذراء وأعاشر أستاذى الجامعى منذ ستة أشهر. ذلك الأستاذ الذى يكبرنى بأكثر من ثلاثين عاما، وأنا أحبه ومفتونة به، وأنا التي لاحقته وراودته عن نفسه حتى مال إلى ونجحت أن تنتزع منه اعترافاً بحبه لى، ولما لم تكن لقاءتنا تكتمل فى الفراش بسبب ذلك الجزء المزعج فى المرأة والمسمى غشاء البكارة والتى أشعر أنه عائق تافه لا داعى لتحميله كل تلك الأهمية وتحمل الحرمان أو عدم اكتمال الإشباع الجنسي بسبب وجوده ولما لم أجد بدا من أكتمال لقاءاتنا بشكل كامل طلبت منه أن يعقد عَلىّ عرفيا فكتب ورقة احتفظ بها معه لكى تبارك تدشينه لى؛ وكنت أشعر بالفخر لأنه من سيدشنى وأنه سوف يكون أول رجل يفتك و يحظى بتدمير ذلك الغشاء التافه الذى لا داعى لوجوده، وبناءً على موافقتى ورغبتى وإلحاحى أصبحت عذريتى تاريخاً. كأن لم تكن وكأن لم يكن داعى لوجودها من الأصل وكأننى تعرضت لجرح عادى فى جسدهى.

أتخذ لى شقة على أننى ابنته، وأننى أدرس بالجامعة، وابتاع لى أثاثا اخترته بعناية خاصة السرير الذى سوف يمكننا من الحياة فى تلك الشقة التي كنا نستمتع فيها بالجنس المفرط

المحموم وأحيانا الشاذ، فى كل مكان منها، فى غرفة النوم حمراء الإضاءة، فاللون الأحمر لون موحى بالحرارة والشبق وموحى أكثر بأن الأحمر الذى نزف منى يمكن أن ينتشر ويصبح كأى لون؛ لا داعى أن يكون لون عفة أو لون إثم أو لون تضحية.

.

لا مانع أيضا من اللقاء فى الشرفة الواسعة فى الطابق العاشر والتي لا تطل على جيران ولا تقابلها بنايات، فقط توقفنا عندما شعرنا أن هناك من يسترق السمع لنا، سكان الطابق الحادى عشر فوقنا فى نفس البناية، أحيانا، من شباب الطلبة ولم نكررها بعد ذلك، فى الحمام وعلى رخام المطبخ العريض المفتوح على الصالة فوق كرسي البار الضيق المرتفع وبأوضاع مختلفة ومتعبة ولأوقات طويلة كان يستعين عليها بكبسولات الترامادول والفياجرا وبعض الحشيش الذى كنت أبتاعه له من أجل المزاج وزيادة القدرة.

كنت أتباهى بتميزى عن زوجته وأنه يمكنه أن يأتينى من الخلف وكنت أحب ذلك، كنا نضرب بعضنا البعض بعنف وكأننا يتشاجران وكنا نجد فى ذلك متعة وهوما يعرف بالسادية أو الرغبة فى إيلام الآخر و الإستمتاع بالألم، وكانا مدركان لمرضنا ولا نخجل أو نستاء منه، كنت مفتونة به وأعشقه؛ فأجهز له ثيابه وأعطرها، وأحب أن أثقب ملابسه الداخلية من الأمام حتى تظهر أعضاؤه دائما لى.

كانت نسمة تتكلم بشغف وحماس وانطلاق كماسورة انفجرت بعد طول انسداد، كنت أستمع لها بعقل محايد، يثور أحيانا ويهدأ أحيانا وكلما أوغلت أكتشف قوتى وصلابتى فى تقبل كل غريبا وشاذ من إلامور.

— كل ذلك كان جميلا ووورديا وواعدا حتى رآنا ابناه الإثنين معاً وطلبا منى أن أبتعد عن أبيهم، ولما لم أفعل، كلمتنى زوجته وعنفتنى ورددت على مسامعى

المنتقى من انواع القذف والسباب ثم هددتنى بأنها رأت المقاطع المصورة التي كان يلتقطها لى وأنا معه بغرفة النوم على هاتفه المحمول وأنها سوف تعرضها على أهلى إن أنا لم أبتعد عنه، وأنها تتحكم فيه وفى مصاريفه وأنه لا يملك ذمة مالية منفصلة والفيلا التي يعيش بها ليست ملكه وكذلك السيارة وأنها يمكنها فتح هاتفه المحمول فى أى وقت ترغب وأنه لا يمكنه معارضتها ويمكنها أيضا التحقق من بريده الإلكترونى ويمكنها الإطلاع على رسائلهما المتبادله سويا وأنها حريصة عليه فقط لأنه أباً لأولادها وحفاظا على الشكل الإجتماعى ودرءًا للفضائح وأنه سوف يظل على علاقته بى وسوف يتركنى عندما يزهد فىّ، كما عرف غيرى وتركهن، وهو ما جعلنى الجأ لك لكى تحل لى تلك المعضلة التي وضعت نفسى فيها، لأنى حاولت الذهاب إلى منزله لأخبر زوجته أننى لا أعاشره وأننى زوجته، على افتراض أن الزواج العرفى زواج؛ لم تقابلنى زوجتة فى بيتها وعنفتنى وقذفتنى وطردتنى، كل ذلك أمامه وهو الذى كان قد قدمنى لزوجته على أننى إحدى الفتيات التي تجمع تبرعات لإحدى الجمعيات الخيرية حتى يهرب من علاقتى به وينفيها، فهو كان يخشي زوجته ويمتثل لها ولأوامرها ونواهيها فهى كانت رأس المال المسيطر والمتحكم، بدونها لا تستقيم حياته، بدونها لا فيلا يقيم فيها ولا سيارة يركبها ولا مصروف شخصى يعتمد عليه، بدونها يمكنه الإعتماد على راتب الأستاذ الجامعى فقط وركوب المواصلات العامة أو التاكسيات أو ربما المشي. بدونها يستعد لاختيار رصيف مناسب يقضى عليه لياليه، بدونها يلجأ لمحلات التوحيد والنور ليبتاع ملابسه بدلا من ماركات الملابس العالمية التي توفرها له، بدونها لا يمكنه تأجير شقق وشراء فياجرا، بدونها لا وجود له من إلاساس، لذا كان منكس الرأس يضع يديه بين قدميه وصامتاً تماما، لا يتخذ موقفا، لا يرد على زوجته، ولا يدافع عنى.

وعندما ذهبت إليه فى مكتبه وجدته بصحبة فتاة أخرى صغيرة فى وضع مخل وعندما اعترضت أخرج الورقة التي تربطنا ومزقها فى وجهى وأخبرنى أننى لست الاولى وأنه دشن اثنتين قبلى، كل ذلك ليثبت لى أنى حمقاء وغبية وأنه وهو الأهم لا ولم ولن يحبنى، هو فقط كان يرغب فى الإستمتاع المريض بفض غشاء بكارة اخر.

كل ذلك وأنا لا أزال أحبه وأعشقه وأحرص عليه وأرغب أن أساعده وأنقذه من نفسه الهائمة بالحب فأنا متأكدة أن حبى له كفيل أن يحتويه ويغيره.

تنهدت ونظرت لها مليا، وأنا أسائل نفسى؛ لأى حديث خرافة كنت أنصت، إلا أننى إستجمعت أفكارى وعلقت على حكايتها

- هو لن يتغير ولا يرغب أن يتغير ولا يحبك ولو أنه أحبك لثار من أجلك أو دافع عنك أو اتخذ موقفا ايجابيا وأنه فى الأصل لم يكن من المفروض أن ينجرف وراء ملاحقاتك ونزواته فارتباطكما محكوم عليه بالفشل بشكل أكيد حتى لو لم تعرف زوجته فسوف يمل منك ويتركك ليبحث عن غيرك.
- إنه لم يتصل بى ولو لمرة واحدة ليطمئن علي، وأنا أتعجب من ذلك وأشعر بالقلق عليه فى نفس الوقت، وأخشي أيضا من بطش زوجته عليه.

رددت عليها بجدية وحسم:

- لا تنتظرى اتصاله ولا تحاولى أن تتصلى به حتى تهدأ الأمور وتنسي زوجته ما حدث وتعرف أنه انتهى وأنك خرجت من حياته بدلا من تدمر هى حياتك أنت.

قالت بيأس وخيبة أمل:

- سوف أفعل فأنا لايمكننى التركيز والتحصيل وأختبارات قد أقتربت، ويتملكنى رعب أن تصل تلك المقاطع المصورة لأسرتى وخاصة أبى الذى يشغل مركزا حساسا وعائلتى الكبيرة المحترمة؛ فتنهار أمى وتنفضح عائلتى ويسقط أبى مريضاً أو ينهار مركزه.

واتفقنا على تنفيذ ذلك، وفى صباح اليوم التالى اتصلت بى لتخبرنى بصوت متهدج تلؤه العبرات أنها لا تقوى على الإنتظار ولا تتحمله وأنها تخشي من الفضيحة وتخشي أن تتصل زوجته بأسرتها أو ترسل لهم تلك المقاطع وأنها لم تعد ترغب به وأصبحت تكرهه فهو لا يستحق حبها وهو الذى تخلى عنها ولم يدافع عنها أمام زوجته ولم يتصل بها بعد أن اهانتها زوجته أمامه وتركها ترحل ولم يطمئن عليها بعد ذلك، وأفرطت فى البكاء وتملك الضعف صوتها وطلبت أن ترانى؛ فوافقت لأهدىء من روعها.

وأندفعت تتحدث من بين دموعها:

- أنا لا تحتمل الإنتظار وأتوجس من زوجته فى كل لحظة ولا أستطيع التركيز فى تحصيلى واختباراتى قُربت وأخشي أن أرسب مثل العام الماضى وأرغب أن أتخلص من ذلك الأمر برمته بشكل نهائى.

أخبرتها وأنا مشفق عليها ومتعاطف معها:

- يجب إذن أن تحسمى ذلك الأمر وتتصلى به وتنهى ذلك الوضع وتخبريه أنك لا ترغبين برؤيته مجددا وأنه يجب أن يخبر زوجته بقرارك.

قالت بحزن ونبرة يئس تعلو صوتها:

- لقد أغلق هاتفه المحمول ولا يرد على هاتف منزله وأنا أفكر أن أذهب إلى منزلة لمواجهته وإعلام زوجته بأنى أنهيت علاقتى به من طرفى، وأرغب أن أعلن لها أو لهما قرارى بالانفصال والابتعاد عنه، ولكنى أخشي من زوجته ومن بطشها وقذفها أو أن تطردنى ثانية من منزلها دون أن تعطى لى الفرصة لأعلن لها قرارى، وأرجو أن تذهب معها لمواجهة زوجته بقرارى.

ترددت فى أول الأمر فذلك الأستاذ صديق لى أنا أيضا كنت أحبه وأحترمه، ولا أرغب أن أورط نفسى فى أمر يتعلق به، إلا أننى أمام ضعفها وقلة حيلتها رضخت لرغبتها وذهبت معها.

فى التجمع الخامس حيث أحد أرقى التجمعات السكنية فى مصر كان منزله يغرق فى الصمت إلا إن سيارته كانت تربض أمامه. كنت أمسك نسمة بيدى. كانت ترتجف كلما تقدمنا حتى كادت تسقط منى عندما واجهنا المنزل وأنا أهدىء من روعها وأشد من أزرها. كانت ترتجف وخرج صوتها مرتعدا:

— أنا لا يمكننى التقدم، أنا أرغب بالتراجع، دعنا نعود من حيث أتينا فأنا لا أصدق أن ما يحدث يحدث ولا أصدق أننى أذهب إليه ثانية فى منزله لأواجه زوجته.

توقفت وأخبرتها أن تحسم الأمر بشكل نهائى فلو تراجعت الآن لن أتدخل فى الأمر بعد ذلك وسوف أنفض عنه يدى تماما.

جفلت وصمتت وقالت من بين إرتجافها ودموعها:

— أنا لا أقوى على ما أفعل، ولا أصدق أننى أفعله.

وأخذت تهذى بذهول وبعبارات متفرقة:

— أنا لا أصدق، لا يمكننى، كان يجب أن يكون هو من بجانبى ألآن، لقد أحببته، كان يجب أن ينجح الأمر، أنا لا أقوى على فراقه، لم يكن يجب أن يحدث ذلك.

كل ذلك وهى لا تدرى أن القادم أعظم وأقوى وأقسي.

دفعت الباب الخارجى للمنزل بيدى اليمنى وأمسكتها بيدى اليسرى بقوة، كانت فى حاجة اليها رغم أنها كانت متشبثة بجسدى كله تكاد تلتصق أو ربما تختفى فيه وكأنها مقبلة على تنفيذ حكم بالإعدام. لم أعثر على جرس الباب الداخلى فطرقت الباب بيدى بقوة صدر على أثرها صوت من أعلى وبرزت صاحبته من شرفة المنزل لتسالنى عن هويتى حزرت أنها

زوجته وكنت مصيبا، أخبرتها إننى صديق لزوجها وإننى أريد رؤيته لأمر هام فهو لا يستجيب لهاتفه المحمول أولهاتف المنزل.

كانت زوجته لا زالت لا تستطيع رؤية نسمة فهى كانت تتدثر بى وتختفى تحت القائم الأفقى للباب الداخلى، فلا يمكن للناظر من أعلى أن يراها.

سمعت الباب يفتح وعندما رأتها زوجته تجمدت فى مكانها فلم أعطها فرصة وتقدمت اليها مادأ يدي بقوة وثقة ومعرفا نفسي وألقيت عليها السلام؛ فلم تجد مفرا من مدّ يدها ورد السلام. كانت سيدة فى الأربعينيات محجبة وتبدو عليها إمارات الحزم والقوة، كانت رغم ما أخبرتنى نسمة عنها تبدو سيدة متعلمة ومحترمة، ربما كانت فقط تدافع عن زوجها وأولادها وحياتها ولم تبدو تلك المرأة سيئة الأخلاق ممن يمكن أن تسب وتقذف.

توجهت إليها بالحديث من فورى:

— أنا سيدتى أرغب بخمس دقائق فقط من وقتك، حتى نُنهى ذلك الأمر بشكل قاطع.

نظرت لنسمة بهدوء وقسوة وردت:

— يمكننى لحضرتك القدوم، أما تلك الساقطة فلا يمكنها دخول منزلى.

حاولت نسمة أن تتكلم، فضغطت على يدها التي كانت ما تزال فى يدى فلم تصمت، وأندفعت تتكلم فأستوقفتها المرأة بحدة:

— أصمتى تماما فأنت غير مُرحب بك هنا على الإطلاق، وأنا لا أرغب أن أسمع صوتك، أنت فتاة لم تتلقى أى تربية.

انفجرت نسمة فى البكاء وخرجت الكلمات من بين شفتيها مهتزة:

— أنا لست ساقطة، أنا زوجته.

إندفعت المرأة بغضب وحزم ترد عليها:

— أنا فقط من تحمل لقب زوجته، وأنت مجرد ظل، قبلت أن تعيشى معه فى السر ولم ولن يمكنك أن تصبحى زوجته، أنت فقط يمكنك أن تكونى عشيقته فى السر كالمومسات.

كانت المرأة كالسيل الجارف لا تتوقف عن الكلام والرفض والسب والقذف بمنتهى الهدوء والحزم وأخبرتنى أنها هادئة فقط من أجل وجودى ولولا ذلك لطردتها مباشرة وأغلقت الباب فى وجهها لأنه لايشرفها أن تتبادل الحديث مع تلك النوعية من البشر.

إندفعت نسمة مجددا فى الكلام بيئس وصوت محتقن:

— أنا جامعية ومن عائلة محترمة وليست ساقطة.

ردت عليها الزوجة بقسوة وحزم:

— إخرسى.

وعند ذلك تحديداً رجوتها أن تتوقف فنظرت لى وتأسفت وتوقفت وطلبت منها أن ننهى الأمر سريعا دون الحاجة لقذف أو جرح أحد.

نظرت لى الزوجة قليلا وتنهدت ثم قالت:

— أنت تبدو كرجل محترم والأمر لن ينتهى وسوف تظل تلك الفتاة تطارد زوجى وتتصل به وتراسله على بريده الإلكترونى، أنا أقرأ رسائلهما على بريده الإلكترونى ويمكننى أن أخبرك بفحواها؛ فتلك الفتاة تخبره أنه لو تركها سوف تنحرف؛ أى فتاة تلك التي تكلم رجلا هكذا بتلك الكيفية، وتلح وتصر وتلاحقه وهو فى سن أبيها، ومتزوج وله أولاد فى مثل عمرها وربما أكبر إلا لو كانت مريضة أو ليس لها أهل كفتيات الشوارع.

- أنا أضمن لك أن الأمر منتهى وبما أننى وصلت إلى تلك النقطة واقف أمامك هنا؛ فالأمر منتهى وليس فى حكم المنتهى وأنا هنا لأؤكد لك أنها من جانبها ترغب فى إنهاء الأمر تماما.

نظرت لها المرأة بطرف عينها وقالت:

— إنها كاذبة ولن تنهى شيئا وسوف تثبت لك الأيام صحة رأيى.

وكانت المرأة القوية على حق ولكنى تبينت ذلك فيما بعد؛ فقد أندفعت نسمة تطلب منها أن تراه؛ فنظرت إليها المرأة نظرة حادة ارتدت لها نسمة إلى الوراء ثم أنكمشت بى، وصمتت الزوجة قليلاً ثم أردفت:

— سوف أحضره، فقط لينهى معها الأمر، ويمكنك لحضرتك الدخول والإنتظار ومقابلته بالداخل، أما تلك الفتاة فأنا أحتقرها ولا يمكننى أن أرحب بها فى بيتى.

- أشكرك ولكنى يمكننى الإنتظار هنا حتى يأتى.

و أستأذنتى أن تغلق الباب قليلا حتى تبلغه. وبمجرد أن غابت خلف الباب انهارت نسمة على صدرى وبللت دموعها الحارة سترتى الشتوية تماما من فرط غزارتها، كنت حتى ذلك الوقت متمالكا رباطة جأشى وأتعامل مع الأمر بحزم؛ فاحتويتها برفق ورحت أربتُ على كتفها ورأسها برفق وأخبرها أن كل شيء سوف يكون على ما يرام وأن تهدأ وأنا أختلس النظر داخل المنزل من فرجة الباب الضيقة أنتظر قدومهما وأتمنى أن تنتهى تلك المحنة وذلك المأزق وتنتهى نسمة أيضا من نوبة بكائها الحار الدامى حتى رأيت صديقى الأستاذ الجامعى وهو مقبل خلف زوجته تنطلق لحيته بلا تهذيب ويرتدى ملابس باهتة ويبدو عليه أنه لم يقرب الماء منذ زمن ووجه مكفهر وشاحب كمن أضرب عن الماء والطعام وهو الذى كنت أراه دائما حليقا أنيقا ضاحكا. أقبل علىّ وصافحنى دون أن يبدو عليه أى انزعاج من وجودى ووقف أمام نسمة لا ينطق ووقفت زوجته بينهما وهى تشير إليها وتردف:

تلك الفتاة تريد أن تراك لتخبرك بأمر ما.

تقصد نسمة ولا ترغب أن تنطق اسمها.

وقف أمامها صامتاً لا يجد ردا، تشجعت نسمة قليلا بوجوده دون أن تترك يدى وسألته:

— أخبر زوجتك أننى لست عشيقتك وإنما زوجتك وأننى لست تلك الفتاة من الشارع وأننى من عائلة محترمة وأننا نلتقى كزوجين وليسا كعاشقين.

نظرت إليه زوجته تنتظر رده؛ ولما لم يرد وأكتفى بالصمت. قالت له بهدوء:

— طلقها إن كانت زوجتك كما تزعم.

قال لها بقلة حيلة وغلبة أمر:

— أنا لم أتزوجها حتى أطلقها.

ردت المرأة بحزم وأقتضاب:

— قلت طلقها.

إتجه لنسمة بالكلام ودون جدال وبآلية قال :

— أنت طالق.

انهارت نسمة وهى تبكى وجال الأمر فى بصرى كأنه لا يحدث أو أنه مشهد فى فيلم لابد أن ينتهى فقد أخذ وقتا طويلا وتزداد أحداثه غرابة وغير منطقية.

أردفت زوجته فى حزم:

— طلقها ثلاثا، حتى لا يمكنك العودة لها، فى حال رغبت أو رغبت.

إتجهت له نسمة بالكلام فى ذهول:

— هكذا تتخلى عنى وكأننى لم أكن.

نظر لنسمة فى هدوء ،وصمت قليلا ثم أردف:

— أنت طالق ثلاثاً.

أنهارت نسمة تبكى مجدداعلى كتفى وأستاذنت أنا من زوجته ونظرت له فمد يده ليصافحنى؛ فنظرت فى عينيه وأنا لا أدرى ما أقول ومددت يدى أليه أعزيه!

أنهارت نسمة على كتفى الأيسر فى عرض الشارع الخالى من الماره ، صمت واحتضنتها بذراعى الأيسر وتركتها تبكى بنهم وبصوت مسموع. كانت المرة الأولى التي أحتضن فتاة تبكى بكل ذلك الضعف واللوعة ، رَبتُ على كتفها وطلبت منها أن نجلس قليلا ، امتثلت لى وكأن إرادتها ذابت ، جلسنا ملتصقين، وضعت راسها على كتفى وخيط مستمر من دموعها ينهمر فى صمت فوق وجنتيها وأخذت تكلمنى كمن تكلم نفسها وتردد:

— لقد عشقته، ووثقت به، كيف يخذلنى هكذا، كيف يتخلى عنى بكل تلك البساطة، كيف تركها تمثل بى هكذا دون أن يحرك ساكنا.

كنت أعرف أنها ليست قِبَلاً لأى حديث من أى نوع والحديث الوحيد المستساغ فى تلك الحالة هو حديث المواساة ، إلا أننى آثرت أن أطرق الحديد وهو ساخن فألقيت على مسامعها ما عندى وما يجب أن تسمعه:

— هو لم يكن يحبك، هو كان يلهو بك ويستمتع بشبابك وبكارتك، وأنت المخطئة حين وهبت له نفسك وهو فى عمر أبيك ومحكوم على علاقتكما بالفشل قبل حتى أن تبدأ،وإنه لن يقف ضد زوجته من أجلك، فهو بدونها سيفقد كل ميزاته بما فيها علاقته بك، إن كانت علاقته بك ميزة.

قالت والدموع الملتاعة لم تفارق مقلتيها:

— لقد أعطيته كل شيء، لم أبخل علية بحبى وقلبى واهتمامى وبكارتى، كان كل شيء فى حياتى.

قلت مكملا طرق الحديد بقسوة وحزم لم أعهدهما فى نفسى:

— أنت كنت مجرد عرضٍ فى حياته.

كانت كلماتى باردة وقاسية تماما ككلمات زوجته إلا أننى كنت أطرق الحديد وهو ساخن حتى تفيق من صدمتها فيه والتى مازالت تشوبها رغبة به رغم تخليه عنها.

ابتعدت برأسها عن كتفى ونظرت أمامها إلى لا شىء وصمتت وقد تحولت ملامحها وتوقفت دموعها ثم قالت:

— سوف أقتله، لن أجعله يهيننى هكذا وأتركه لها.

انطلقت منى ضحكة عالية رغما عنى وأنا أرد عليها:

— أنت طيبة ولا يمكنها قتل دجاجة والأمر لا يستحق أن تضيعى عمرك من أجله وتدخلين السجن ويكفية سجن زوجته.

بكت مجددا عندما ذكرت زوجته وتحولت مشاعرها دفعة واحدة وأنا أتعجب من ذلك التحول وأشفق عليهاوهى تخبرتنى:

— يجب أن أذهب إليه ثانية، وأكلمه، يجب أن أنقذه مما هو فيه، يجب أن أجعله يفيق ويأتى معى، يجب أن أبدأ معه من البداية وأن أزرع فيه الحرص والحب يجب أن أغيره والده من جديد.

تنهدت وقلت:

— يجب أن نرحل من هنا قبل أن يزحف الليل، فزوجته سوف تطردك وربما طلبت لك الشرطة وحينها لن استطيع أنا أن أتدخل وربما تطردنى أنا الآخر وأنا لن أطيق ذلك ولا أقبل أن تذهبى ثانية، هو أمر محسوم، هو يلهو بالفتيات أمثالك، هو لا يحبك أفيقى هو يلهو بك كما تعود أن يلهو بالفتيات الصغيرات الغريرات الساذجات الغبيات أمثالك، هو لا يحبك هو فقط يستمتع بك وبشبابك.

قالت بتلقائية وصدق :

— أحبه.

أطبقت فمى ونظرت إلى الأفق بصمت تام.

— لا تغضب، ليس بيدى.

ربت على يدها وأردفت:

— لابد أن نرحل، لا يمكننا الجلوس هنا طيلة النهار فى هذا المكان، أنا أحس أنه لا يوجد هواء كاف هنا.

قالت أخيرا باستسلام:

— كما ترى.

وتمسكت بذراعى جيداً ورحلنا، سألتنى ألا أتركها ولم اتركها، سألتنى أن نمكث بشقتها قليلا، نفس الشقة التي أجّرها لها والتى كانا يلتقيان فيها، فأنزعجت من الفكرة؛ فأنا لا أرغب برؤية مكان لقاءاتهما ولا أحب التواجد بمكان كان هو به ويفعل ما فعل ، ترجتنى وألحت علىّ ، رق قلبى لحالها وتنحت قسوتى وانزعاجى جانبا إلى حين.

فى انتظار الطابق العاشر بالمصعد، التصقت نسمة بصدرى فى صمت قابلته بصمت مماثل.

وأمام شقتها، فتحت الباب، وجلت للحظة متخيلا كل ما حكته لى وكأنه يمر أمامى كلقطات مصورة متخيلا إياه يجول فى الشقة بملابسه الداخلية المثقوبة من إلامام أو يخرج من الغرفة ليفاجأ بوجودى أو يطاردها ويضحكان أو يتشاجران كما أخبرتنى.

— تفضل.

أفقت على دعوتها لتجذبنى من غفوتى ، ولجت إلى الداخل وأنا مبهوت لا أدرى لماذا جاءت ولا أدرى لماذا وافقت، أخذت تتحرك فى الشقة على سجيتها واستعادت انطلاقها وأبتسامتها وأخذت ترينى الغرف والمطبخ والحمام وتسألنى عن رأيى فى إختيار الأثاث وكأنها عروس جديد وتخبرنى إنها اختارت تلك السجادة وذلك السرير وأنها كانت تذهب لتشترى أطباقاً وأكواباً للمطبخ وتنوء بحملها ولكن بسعادة لأنها تؤسس بيتها الخاص؛ كنت أنصت وأبتسم ابتسامة خفيفة وأنظر للأرض، تضحك وتسألنى:

— ما بك؟

أبتسم وأخبرها:

– أنت غير طبيعية.

تبتسم وترد:

– أدعُ لى إذن أن أشفى.

ثم راحت تدعونى أن أتخلى عن تحفظى:

– أسترخ وتخل عن سترتك وتحرك فى المكان على طبيعتك.

أتحفظ أكثر وأرد:

– أنا هكذا على طبيعتى، أنا أحب أن اظل بملابسى حتى عندما أكون داخل المنزل، ذلك لا يزعجنى.

تبتسم وترد:

– كما تحب.

وتخلت هى عن حقيبتها وسترتها وظلت بالقميص القطنى الضيق والبنطلون الجينز الأضيق وكنت لا أنظر لجسدها قبل ذلك؛ فنظرت وأحسست أن عينى ترى ما لم تكن ترى فنسمة جسمها مدمج وإليتها مستديرة تبرز من جسدها بشكل محبب ومثير ونهدها أيضا عامر وشهى، لم أكن أنظر بعين الراغب أو المشتهى، كنت أنظر بعين من سمع وعرف، كنت أنظر بعين من شاهد ولمس ودشن، كنت أتبين الفرق بين عينى وهى لم تعرف وعينى بعد أن عرفت، ويبدو أن العذراوات يتحور جسدهن بعد أن يصبحن غير عذراوات ويتحرر أو ينطلق بشكل أو بآخر.

أخذت تتجول بى فى المكان وترينى حجرة نومها وكيف أنها تحبها جداً وهى من حرصت على تحويل إضاءتها للون الأحمر بإضافة ورق شفاف أحمر اللون إلى مصباح الغرفة أبيض الإضاءة المعلق فى السقف حتى عندما يعود من الحج، نعم عندما يعود من زيارة الأراضى المقدسة بعد فريضة الحج التي كان يؤديها، يجد الغرفة أكثر نعومة ورومانسية وإثارة، أرتنى المكتب الذى أحضرته لتكتب خواطرها وتحصل دروسها عليه وأصرت أن

أجلس على السرير وأن أتخلى عن خجلى ذلك. لم أكن خجلاً؛ كنت فقط أرغب أن ننتهى ونرحل، لم أكن قد أحببت المكان وكان صدرى يضيق من مجرد ذكرى وجوده وذكرى علاقتهما الغريبة؛ فكنت متحفزاً أستعجل الرحيل، إلا أنها أستبقتنى عندما أصرت على ان نأكل سويا.

— أنا جائعة وأرغب بتحضير وجبة غداء سريعة لنا.

— أرغب بتونه.

ضحكت وقالت:

— سوف تضطر إلى فتحها بسكين. كما كان يفعل هو.

ابتسمت ورددت مازحاً:

— يبدو أنه يجيد فتح كل الأشياء.

ابتسمت بخبث وقالت:

— أعرف أحدهم أيضا ممن يجيدون فتح إلاشياء.

قلت بهدوء وجدية:

— ذلك الأحد لا يغرر بالعذراوات ولا يقبل أن تراوده أحداهن ولا يلتقى بها سرا والأهم أنه لا يتخلى عنها أو يدمر حياتها.

توقفت عن الضحك ووضعت يدها على فمى وقالت:

— أرجوك؛ لست قبلا لردودك.

غرست السكين فى معدن العلبة وفتحتها بسهولة واعتليت أحد المقاعد المواجهة لرخام المطبخ المفتوح على صالة الشقة وأفرغت محتويات علبة التونة فى طبق أحضرته هى واستدارت وجلست فى مواجهتى على المقعد المقابل وقالت برجاء وبصوت حزين وكانها تتحدث إلى نفسها:

– أنا أتمنى أن يأتى الآن أو يتصل بى فأنا أرغب أن أطمئن عليه.

قلت بتعجب ونفاذ صبر:

– وأنا أرغب بتكسير رأسك.

ضحكت وقالت:

– لن تفعل، أنا لم أقابل أحداً مثلك يتعامل مع الأمور والناس والحياة كما تفعل أنت، وأنا فى حاجة اليك؛ فتحملنى.

نظرت إليها تلك الطفلة المجنونة المسكينة وهززت رأسى، وأكملنا طعامنا وتجاذبنا أطراف حديث ضاحك بعيداً عن جو التحفز والعتاب، تخلصت من سترتى وسألتها أن تعد لى فنجانا من الشاي، فأحضرت لى روماً ابيض كانت تحتسيه معه وعرضت على أن أجربه فرفضت.

– أنا لا أحب ولا أشرب الخمر.

– لِمَ؟ إنه طيب.

– إنه مر ومحرم والحمد لله أنه كذلك.

– ضحكت بخبث ثانية وأضافت:

– حسنا أيها الأب الموقر، كما تحب.

وأعدت لى الشاى، وطلبت منى أن تشاركنى التدخين فقد أخذ هو علبة السجائر التي كانت تحتفظ بها، أعطيتها سيجارة فجلست تدخن وتهتز بالكرسي وتنظر للسقف، وتتكلم:

– أنا لم أكن أتمنى أن يحدث ما حدث.

– إن ما حدث قد حدث، وكلاكما مخطئ، ولكن خطؤك أنت أعظم، فأنت من طاردته وأصررتى عليه منذ البداية وعليك أن تتحملى نتيجة اختياراتك طالما قبلت تحكيم العاطفة والهوى.

- قد أتقبل النتيجة ولكنه خذلنى بشكل لم أكن أتوقعه، لماذا إذن أجّر لى شقة وابتاع أثاثاً.
- ليحرص على أداء أفضل لطقوسه، فى مكان وأجواء مريحين، أى انه صنع ما صنع من أجل نفسه اولا.
- لكنه كان يحبنى ويعاملنى برفق وحرص وحب.
- عند الجنس الكل يتساوى،المتشرد يحب الساقطة والملك يحب الخادمة.هو لم يكن حباً، هى منفعه، تبادل للحاجات بعد ذلك كلُ كما كان لا شىء يربطه بأحد لا عقد ولا التزام ولا مسئولية مجرد تقابل مصالح ولقاء للغرائز وهو ما كان يفعله، أنت ترغبين به وهو يرغب بك ولا شىء أكثر ولا تتوقعى منه شيئا أكثر.
- ألن يأتى أذن أو يتصل أو يعاوده الحنين إلى؟
- لو فعل فتوقعى ان ما حدث اليوم سيحدث مجددا.
- لا اصدق!
- يجب أن تصدقى قبل إن ترسبى للمرة الثانية على التوالى وتنتهى حياتك بفضيحة.

رن جرس هاتفها؛ وكان رقم هاتفه، أشارت إلى وابتسامة منتصرة على وجهها، جفلت للحظة ولم أصدق، صفعها صوت زوجته وهى تطلب أن تكلمنى، التقطت هاتفها لأجد زوجته توجه إلى الكلام وتعتذر:

- أعذرنى أن كنت قد أتصل على هاتفها، فأنا لا أعرف لك رقما، وأنا حريصة أن أعتذر لك عن مقابلتى الجافة والفاظى القاسية، فأنا لم أستطع تمالك نفسى وأتمنى أن ينتهى ذلك الأمر.

تعجبت من اتصالها واعتذارها إلا أننى رددت عليها:

- لقد أنتهى الأمر بالفعل.

— مع احترامى لك، فتلك الفتاة سوف تتصل بزوجى مجددا وسوف يحاول هو من جانبه أن يراها فأنا أعرف زوجى جيدا وأتحمل طبيعته ونزواته من أجل الحفاظ على حياتنا العائلية ومن اجل سمعة زوجى وسمعة ابنائى الرجال وطفلتى الصغيرة، وأرجو منك أن تطلب من تلك الفتاة أن تغير رقم هاتفها حتى لا يصل اليها إن كانت جادة فى قرارها.

نظرت إلى بسمة وأنا أشعر أن المراة تعرفها أكثر منى وربما أكثر من نفسها وتملكنى قلق مشوب بحذر، إلا أننى رددت عليها بحزم.

— سوف تفعل.

لم توافق بسمة فى البداية واعترضت وامتنعت وترجتنى، أخبرتها أنها إن لم تغير الرقم فسأعتبرها تراجعت ولن أدعها تضعنى فى ذلك الموقف وسأنسحب من الأمر تماما وعليها مواجهته وحدها، فرضخت لى أخيرا وابتعنا رقما جديداعندما خرجنا سويا وضعته مكان الرقم القديم واحتفظت بالقديم رغما عنى.

كنت قد اعتدت المكان وهدنى التعب وتراخت رأسي وثقلت أطرافى بفعل التعب والطعام فقمت بهدوء لأستلقى على طرف السرير الأيسر، أنا أنام على الجزء الأيسر من السرير وأحب أن يكون من بجانبى على يسارى وأتكوم على جانبى الأيسر كجنين ، رغم أن نسمة كانت قد طلبت منى مرارا أن أستلقى على السرير وأجربه ، إلا أننى فعلت عندما رغبت أن أفعل أنا ، أحتضنت الوسادة الوثيرة فى صدرى وغفوت برهة لأجد نسمة تقفز بجانبى مبتسمة وتكلمنى، كنت أنظر إلى ابتسامتها وتتسلل إلى نفسى رائحة كنت أعرفها جيداً وأبحث عن ثالثنا فلا أجده ، كانت نسمة تبتسم ابتسامة ، كنت أعرفها جيداً عندما تظهر على وجه الفتيات ، كانت سعيدة رغم الظروف والموقف المعقدين ، سعادة من أنتصرت

علىّ وجاءت بى إلى سريرها ، استلقت على ظهرها على قائم السرير وتمدد باقى جسدها ووضعت كفيها على بطنها ونظرت لى بعينين ناعستين وابتسامة شقية تعلو ثغرها وقالت:

— كنت أظنك لن تفعل.

قلت بتعجب:

— لن افعل ماذا ؟

وكنت صادقا فى تساؤلى.

— أن تسترخى قليلا.

— قطبت حاجبى، وبدا على القلق، فسارعت بقولها:

— أقصد إن تكون على سجيتك وتتخلى عن تحفزك وحذرك المبالغ فيهما.

صمت وأغمضت عينى، فأردفت:

— صأصنع لك كوبا من الشاى.

لم ارد، قامت وخرجت ثم عادت للجلوس بجانبى ثانية، تعجبت وفتحت عينى لأتجمد كُلّيةً فبجانبى تماما كان صاحبى أو الرجل الذى تجلى لى فى غرفة جدي، أبتسمت إبتسامة خفيفة وبادرته بالكلام:

- أهلا
- أهلا بك
- خيراً
- أحدهم دعانى
- أنا لم ادعوك
- قلت أحدهم، ولم أقل أنت

تعجبت وكنت أظنه يحضر من أجلى أنا فقط قرأ ما أفكر به وكأنه سمع صوت تفكيرى، فقال:

- يمكن للآخرين ممن يحيطون بك أن يستدعونى أيضا وأنا هنا يجب أن اكون ثالثكما

قلت بتعجب

- أنا ونسمة

- نعم

قلت بإستنكار

- أنا لا أفكر فى نسمة

- ومن أفترض أنك يجب أن تفكر أنت فيها، يكفى إن تفكر هى فيك وبقوة حتى أتجلى.

أنتفضت هاتفا:

- نسمة!

- نعم نسمة، تود لو تفتك بك فتكا، ترغب لو تطلق كل حيواناتك البدائية والمنوية سواءً بسواء وتمزقها تمزيقاً.

- بسمة!

- نعم، ولِمَ تتعجب؟ هى أصرت على قدومك، وعلى أن تسترخى فى سريرها، ماذا تظنك فاعل بعد ذلك؟ تنام؟ يا لك من رجل! وهل ستدعك هى تنام.

أخذت أفكر بكلماته عندما قام فى الوقت الذى دخلت فيه نسمة بالشاى، اعتدلت، فبادرتنى:

— أسترح حتى يبرد الشاى.

أخبرتها بجفاف وعنف:

— لا حاجة بى لمزيد من الراحة أو النوم.

وضعت هى الشاى بجانب السرير خلف ظهرى ثم فوجئت بها تجلس خلفى، انتفضت، قبضت على كتفى وأعادتنى بهدوء وثبات إلى مكانى، التفت أهتف بها:

– ماذا تفعلين؟

قالت بهدوء:

– سوف أزيل عنك توترك، سوف أدلك كتفيك.

– لست متوترا ولا حاجه بى للتدليك.

ولكنى لم أقف أو آمرها بالتخلى عن مكانها خلفى وتذكرت صاحبى فبحثت عنه بعينى لأجده يقف فى زاوية معتمة من زوايا الغرفة صامتا مراقبا.

سكنت فى مكانى وتركت بسمة تدلكنى وتفرك ظهرى بيديها وتلتف بأصابعها حول عنقى وتهبط بها حتى صدرى وتتدلى حتى تنزلق كحية تحت قميصى وتلامس لحم ظهرى وتقترب من مؤخرتى وأنا أكاد التف لأغرس أصابعى فى ذراعيها والفها حول جسدى وأمثل بجسدها وأصمت أكثر وأستجمع ما تبقى من قوتى ويكاد يرتجف جسدى فى إحدى مراته القليلة وتتوحد طاقتى وأستجمعها كلها بهدوء فى نقطة واحدة وأنظر من النافذة إلى السماء وأستحضر مدداً لم أتعود أن أستحضره وصاحبى يراقبنى بهدوء وصبر ونسمة تنتهى بإطباق يديها حول عضلات بطنى فأمسك بكفيها وأنزعهما وأهتف بها بغضب:

– كفى.

ليختفى صاحبى، وأنتفض أنا واخرج، لأرتدى سترتى ونسمة صامتة لا تعترض وأخبرها بحسم:

– سوف أرحل.

فترتدى سترتها لنهبط سوياً إلى الشارع المملوء بالناس والضجيج والحركة والحياة، تنظر إلى وتردف:

– أنت لا تصدق، لا يمكن أن تكون بشراً.

أشيح بنظرى بعيدا عنها واقول:

– بل أنا بشراً أو هكذا يجب أن اكون، وأنت أيضاً حاولى أن تكونى.

أطرقت إلى الأرض وقالت:

– هيا نسير سوياً قليلا.

– لا، سوف أرحل.

– لو رحلت سوف أكون أسوأ وأسوأ أرجوك، ابقى معى وسأحاول أن أكون بشراً.

وأضافت بضعف بشرى تجلى بصدق فى عينيها:

– أرجوك!

كنت لا أتحمل الضعف البشرى وأحيانا أكرهه وأشفق عليه فامتثلت رغما عنى، تسكعنا فى الشارع المزدحم بالمارة وخاصة البنات، ووجدت نسمة تلتفت لتقول لى:

– أنت لا تلاحق الفتيات بنظراتك، رغم أن كل الرجال الذين عرفتهم أو شاهدتهم وحتى أصدقائى فى الجامعة يفعلون.

– أنا لا أحب أن أفعل ذلك.

– لماذا ؟

– هو مزيج من غض البصر واحترامى لذاتى وللآخر، إضافة إلى أننى لا أرغب بإثارة نفسي دون داع أو طائل لمجرد النظر إلى الفتيات ، أنا فقط أحب النظر إلى من يختارها ويحبها عقلى.

فقالت بحماس:

– إنا لها صديقة تحب ذلك النوع من الرجال ولو رغبت فيمكننى أن أقابلك بها.

– أنا أحب أن أختار نسائى بنفسي ، وأن يخترننى هن أيضاً برغبتهن وعن قناعة وقبول، ولا أحب تلك الطريقة فى إقامة العلاقات، ولست راغبا بعروسٍ حتى تقدمينا لبعضنا البعض.

ضحكت وقالت:

– لم أقل لك تزوجها ، قلت تعارفا.

شكرتها وصمت حتى تنتهى، ففاجأتنى:

– أنا لى صديقة أخرى ترغب فى أن تقيم بمفردها علاقة جنسية مع خمس رجال دفعة واحدة.

ألتفت اليها مذهولا ، فأومأت برأسها مصدقة على كلامها ، وذلك البريق المخيف يلمع فى عينيها ، صَمتُ وقد اتخذتُ قراراً أبلغته لها على الفور.

– نسمة؛ سوف تذهبين الآن إلى منزلك على الفور، ولن تحاولى معاودة الإتصال بى مجدداً، لقد انتهت حكايتنا عند ذلك الحد، فأنا لن يمكننى تحمل المزيد من الشذوذ الذى ملأ اذنى وعينى على مدار اليومين الماضيين أكثر من ذلك ، ولن أرضخ لدموعك أو ضعفك بعد الآن، ويمكنك أن تفعلى بنفسك ما تريدين، حتى لو رغبتى بإلقاء نفسك تحت إحدى السيارات المارقة أمامنا بالشارع، فلن أحرك ساكناً، وسأتركك تلقين بنفسك.

ودسست يدى فى جيوبى ورحلت مبتعدا وسط دهشتها وذهولها، ولم التفت ورائى ولم أر نسمة بعد ذلك ابداً.

إســراء

كانت المرة الأولى التي تطأ فيها قدمى كبارية حقيقى ، كانت كل علاقتى بالكباريهات تصل لعقلى عبر عينى من خلال الشاشة الفضية أو التليفزيونية فقط، أما أن أدخل كباريهاً حقيقياً ، لأراه بعيني، فهذا ما لم أكن أفكر فيه أو أخطط له ، وعندما دلفت إلى المكان توقف الزمن بي تماماً، أو تباطأ، ليحتل وعيى وعىُ مختلفا تماما وربما وعىُ مختلُ ، تتباطأ عندة الأشياء والأشخاص والأحداث فما هو كائن وقائم لا يحدث أو لا يمكن أن يحدث على الأطلاق، أو أننى أتخيل أنه يحدث فأول عبارة طرقت أذنى كانت لرجل يبدو علي حواره مع فتاة تتجرد أكثر مما ترتدى، أنه قواد.

— إتقى الله فى أكل عيشك.

لم أعرف على وجه التحديد إلى أي إله كان يشير، أوعن اى إله كان يتحدث وظننت لوهلة أن للقوادين إله متساهل ومتسامح يحلل البغاء ويبيح الخمر وربما يحرض عليهما ، فكيف يأتى لفظ الجلالة على لسان رجل كهذا فى مكان كذلك ، ربما كان الرجل من أصل روماني ، ويستشهد بإله إغريقى من أحد هؤلاء الآلهة الكثر الذين يتفرغون للتأله على شىء واحد؛ طالما يذكر به البغى التي يكلمها.

لا يذكر بصرى أنه اصطدم بكل كتل اللحم العارية تلك فى مكان واحد ، المكان ملىء بهن ، فتيات صغيرات تحت سن العشرين أو فوقها بقليل يرتدين ملابس قصيرة أو شفافة من المفروض أنها مخصصة للنوم أو لغرف النوم، تستر نهودهن وأردافهن بالكاد، يتغيرن كل ساعة تقريباً، وكأن ماسورة فتيات انفجرت فى المكان، يختفين وتظهر غيرهن، ربما ذهبت المختفيات مع زبائن، لا أدرى ولم أسأل، أنا عادة لا أسأل، أنا فقط أراقب.حاولت

إحداهن الجلوس على قدمى بجسده شبه العارى، فقط لمجرد أنى نظرت اليها، فوجدتها تقفز إلى قدمى كالقرد، إلا أن عطرها الرخيص وأسلوبها الأرخص جعلنى أتخلص منها سريعا فأنا لا أحب الساقطات .

كانت تتردد فى المكان الأحمر الإضاءة والإثاث أيضاً أصداء أصوات وضحكات مزعجة وشتائم من كل صنف ولغة وكانت الفتيات سخيات كفاية بإخراج نهودهن وكأنهن يخرجن ألسنتهن ويلقِمنُها للبهائم التي احتلت الطاولات ودفعن نقدا وفى الحال وربما أتين بما هو أقبح ولا داعى لذكره، نسيت أن أذكر أن هذا المكان موجود فى أول شارع شهاب بالمهندسين عبر زقاق ضيق لا ينم اطلاقا عن وجوده ينتهى بسلم ضيق طويل يفضى الي باب حديدى عليه قفل ضخم وقديم حتى ليخيل للناظر أن لا حياة فى هذا المكان الذى كان موجود فيه مجموعة من رجال شرطة الآداب ممن يقومون بواجبهم على أكمل وجه فى الحفاظ على تواجد واستمرار المكان، والذين كانوا مشغولين بين استلام شهرياتهم والعبث ببعض الفتيات.

استقرت عينى للحظات على فتاة من الفتيات، إلا أنها بدت مختلفة بهدوئها وملابسها الوقور المثيرة، لاحظت نظراتى؛ فتقدمت بهدوء لتجلس بجانبى وليس على قدمى كباقى الفتيات، أخرجت علبة سجائر حمراء ذات سجائر داكنة اللون رفيعة وطويلة، رفعتها أمامى، أخذت سيجارة أشعلتها وأعطيتها قداحتى لتشعل سيجارتها؛ فأنا لا أشعل السجائر لأحد ولا أحب أن يشعل لى أحد سيجارتى. سألتنى:

- من أنت؟ وما سر تواجدك هنا؟ أنت لا يبدو عليك ممن ينتمون لصنف البهائم ممن يملئون المكان.

لم أجيب على أسئلتها وسألتها بدورى:

— هل قرأت رواية " إحدى عشرة دقيقة " للروائى البرازيلى " باولو كويلهو " ؟

ابتسمت واقتربت منى وكأننا صديقان حميمان وقالت:

— أنا لا اخطىء فى قراءة الناس أبدا، وأنت لا تنتمى لمرقد الحيوانات هذا، ونعم، أنا قرأت الرواية إحدى عشرة مرة.

لم أتعجب من ردها وكنت أتوقعه، وأضافت:

— أنا من ضمن فتيات قليلات يخترن زبائنهن ويعملن بالمكان ولكننا مستقلات إلى حد ما، وإن كنت تحب معرفة المزيد، فأنا خريجة قسم اللغة الفرنسية، ووجودية وامتلك سيارة رينو وأعيش بمفردى ولا أسمح لنفسى بأى حال من الأحوال أن أحب أحد من زبائنى أو أن يقع هو فى هواى واتقاضى ثلاثة آلاف جنيهاً عن الليلة الواحدة ولا انفق على ابى المريض أو أخواتى التسعة، وأعمل مرتين أو ثلاث أسبوعيا وارتاح بقية الأسبوع والعائد من عملى يفيض عن حاجتى، فقد كرهت العمل والأستيقاظ مبكراً وتحكم المدراء الذكور المتعنتين المتحرشين مقابل ثلاثة آلاف جنيهاً كحد اقصي فى الشهر.

نظرت فى عينيها السوداوين الواسعتين وقلت بإقتضاب:

— أنا لا أملك ثلاثة آلاف جنيهاً.

فلم تنتفض من جانبى وكنت متأكداً أنها لن تفعل.

راهنتها على أن نلتقى ومن يمنح الآخر تجربة أفضل يبتاع له شرابا يحبه، أحكمت أزرار قميصها وقبضت على يدى وأنتصبت واقفة ورحلنا.

إنساب صوت " أديس بياف " تشدو بأعذب أغنياتها، فى سيارة إسراء الرينو" ذات مرة فى الزحام اصطدمت برجل، تلاقت أعيننا ثم فرقنى عنه الزحام ثانية " انطلقت إسراء حتى منطقة الزمالك الهادئة فى ذلك الوقت من الليل ، دلفنا إلى شقتها فى الطابق الأخير؛ ببناية أنيقة تطل على النيل مباشرة ، رحبت بى وقالت:

– يمكنك أن تتحرك وتتصرف كما يحلو لك، حتى احظى ببعض الماء الدافىء على جسدها.

قلت بهدوء ولطف:

– أرغب أنا الآخر أن أحظى بنفس الماء الدافىء.

نظرت وابتسمت ولم ترد، اقتربت منها وحملتها بهدوء كطفلة.

لم تحتضنى ولم تتكلم، فقط استسلمت لجسدى، سرت إلى الحمام بغريزة من يعرف المكان ووضعتها برفق على رخام الحوض العريض ونظرت فى عينيها السوداوين بلا شهوة، ولم أجد فى عينيها شهوة، مددت يدى وسحبت مشبك شعرها من خلف رأسها فانساب شعرها الأسود الغزير الناعم على كتفيها وبدى وجهها كبدرٍ فى تمامه بتفاصيله الأرستقراطية الدقيقة، مددت يدى لأحرر أذنيها الصغيرتين من أقراطهما الماسية الأنيقة وجيدها من قلادتها التي تشبه قلادة بطلة فيلم " تيتانك " وتحسسته بكلتا يدى برفق من أسفل ذقنها حتى ملتقى كتفيها. حررت أزرار قميصها، كانت صامته تنظر لعينى طول الوقت تبحث عن حيوان لابد أن يظهر فى أى لحظة، كانت مستسلمة ليدى التي خلعت عنها كل ملابسها وحملتها إلى المياه، امتدت يدى لتفتح صنبور الماء، ضحكت وقالت:

– أنت لازلت بكامل ثيابك.

ابتسمت ورفعت ذراعي لأعلى، فقبضت على أطراف قميصى وخلعته عنى دفعة واحدة ثم توقفت، فمددت يدى ثانية نحو الماء؛ فنظرت إلى سروالي وصمتت. فابتسمت وقلت:

– كذلك افضل.

جفلت للحظة ونظرت لعينى فى صمت فابتسمت ابتسامة خفيفة وقبلت جبينها، فابتسمت كمن يمتن واغمضت عينيها ففتحت الماء ليتدفق على صدرى، لامست صدرى المبتل بكفيها الصغيرين ووضعتهما عليه ثم ألصقت وجنتها اليسرى بين كفيها الملتصقتين على صدرى، أحتضنتها برفق وساد صوت الماء المتساقط على صمتنا وراح يغسل ويغسل.

تكررت لقاءاتى وإسراء بشقة الزمالك كيفما أتفق فى البداية ثم بشكل منتظم بعد ذلك ، وأصبحت إسراء تنتظرنى يوميا وحيث أننى بلا مأوى ولا مسئولية كنت أحرص منها على لقائها ، كانت تفرح لمقدمى وكأننى عشرة رجال يحبونها. كانت تهرول إلى صدرى وتمكث به ساكنة مستسلمة صامتة كانت تنظر لعينى كثيراً فى بداية كل مرة نلتقى بها، تبحث عن شيء ما ولا ترغب أن تجده، تبحث عن شهوتى أو لهفتى أو حبى، كنت محايداً أنظر إليها بصمت وابتسامة خفيفة.

أحياناً ألامس بأنفى أنفها فى شغب أو أرفع وأخفض حاجبى فى مرح فتضحك رغما عنها وتضيف:

— لن تصبح جادا ابداً، ستظل ذلك الطفل الأبيض المشاغب.

أرد عليها بصوت مشاغب :

— لو لم أكن ذلك الطفل الأبيض المشاغب، ما كنت هنا الآن، ولن أريحك أبداً وأظهر لك ما تريدين أن ترى أو أقول لك ما لا تريدين أن تسمعى.

هى كانت تبحث دائما عن نقطة التحول التي يتحول عندها الرجل من إنسان إلى حيوان تملأ عينيه الغريزة، تبحث عن النقطة التي يتحول فيها اهتمامى بها إلى حب، تبحث عن النقطة التي يفقد فيها الرجال اهتمامهم بعقل الأنثى ويتحول إلى جسدها وأنا كنت محايداً لا تظهر نظراتى شهوة أو حب أو قلة اهتمام وهى كانت ترتاح لذلك وأنا كنت ادرك ذلك، هى لا ترغب أن احبها أو أشتهيها أو أفقد الإهتمام بها وأتحول إلى الإهتمام بجسدها، هى كانت تحب أن أعاملها كإنسان كرجل لرجل أو أنثى لأنثى، غريب ما كانت ترغب وغريب أننى كنت أفهمه، إلا أنه والدي، ذلك الرجل الذكى الطيب القوى الذى كان يخبرنى دائما إننى يجب أن أفكر كما تفكر المرأة، أفكر كما تحب هى أن تفكر، أفكر كما ترغبنى هى أن أفكر، أفكر بعقلها، أستعيرة وأترجم رغباته وكأننى أفصل من عقلها عقل وأفصل من جسدها عباءة فأبدو نموذجاً لما ترغب أن تحب ثم حقيقة وواقع لما تحب، كان يقول لى دعها تحبك، أترك لها الوقت والحرية والمساحة، دعها تتحرك على هواها وكما يحلو لها لا

تروضها كالخيول؛ فتنفضك عن ظهرها، تكلم معها، سر بجانبها متوازيا حتى لا تصطدما اركضا معاً اسبحا معاً، لا تصطدما، دعها تصطدم بك عندما ترغب، دعها تندمج بك عندما ترغب، دعها تحبك، دعها تختارك، ورغم صغر سنى، فقد كنت اتذكر كل حرف من حروف أبى، وهو ما كنت أفعله مع إسراء، لم اعتليها ولم ارغمها عليّ، لم أقفز على رأسها كقرد، لم ألح، لم أطالب، كنت أقرأ ما في عينيها وأنفذه، كنت أقرأ الأشياء التي لا ترغبنى أن افعلها ولا افعلها، كانت تنظر طويلا لعينى وتخبرنى ألا أحبها وكنت لا أحبها، كانت تخبرنى ألا أطلب منها التخلى عن عملها ولم أطلب منها، كانت تستسلم لصدرى وتغمض عينيها وتتحمل ضغطى الشديد لجسدها الضئيل المدمج وكنت أحب أن أفعل، كانت تخبرنى أننى سأزهق روحها فى إحدى ضمّاتى وأنها تحب ضمّاتى ولن تحزن لو تفتتت فى صدرى، كنت أعدها أننى لن أبالغ فى ضمّها ولم أكن أفى بوعدى، كنت أحب أن أضمها بقوة ولطف حتى أسمع صوت عظامها تختلف ويقترب حاجباها من بعضهما البعض من الألم وتشتد إغماضة عينيها فأتوقف، كانت تحب أن أحملها كالأطفال وأسير بها ونحن نتحدث، كنت لا أجد مشقة فى حملها بل أجد متعة وأنا أحملها واقترب بوجهها المثلثى دقيق الملامح من وجهى، كنت أحب خصلات شعرها الأسود الغزير وهو يلفح أنفى برائحته الذكية، كنت أحب أن أختلس قبلة من شفتيها وأنا سائر بها أو أقضم وجنتها أو الصق جبهتى بجبهتها، كانت تحاول دائما اعداد طعام لنا وكانت تصف لى ماذا أعددت وكيف أعددت، كنت أثنى على مهارتها وعلى رائحة الطعام الذكية وأود لو أخبرها ألا تكرر تجربة الطهى مجدداً فلقد اشتكت معدتى من أصنافها التي تجربها بي، وكنت فى كل الأحوال طعامى قليل، كانت دائما تخلع عنى قميصى وأنا سائر بها وتتشمم جلدى، كنت أضحك وأخبرها أن تتوقف عن سلوك مصاصى الدماء هذا؛ فتضحك وتخبرنى أنها تحب رائحة جلدى وتسألنى كيف أننى لا أعرق فأخبرها أننى أهتم بنظافتى الشخصية بشكل مستمر ولا أحب ملمس العرق على جلدى ولا رائحته. هى أيضا كانت أنفاسها زكية دائما حتى عندما تستيقظ من النوم لم تكن أنفاسها تتغير، كانت دائما تجلس على قدمى ونحن نتكلم أو نأكل

وكنت أحب ذلك، كانت لا تتوقف عن الكلام معى منذ حضورى حتى رحيلى وكنت لا أمّل منها وأحب الإنصات إلى صوتها الطفولى وضحكاتها الكثيرة القصيرة؛ كانت كمن يتكلم معى أنا فقط أو من تدخر لى كل الكلام، فتخبرنى بكل ما صنعت وكل ما حدث لها ولا تتطرق على الإطلاق لتفاصيل عملها، كانت تأخذ رأيى فى ملابسها الداخلية منها قبل الخارجية كانت تحب ذوقى وتثق به وأحيانا كثيرة تمتطى ذراعى لأختار لها ما تلبس، كنا نذهب إلى محلات جويا للملابس النسائية الداخلية، كانت ترتدى ما ترتدى وتزيح ستار غرفة الملابس لتتبين رأيى، كنت أرتبك فى البداية وعندما عرفت أنه يمكن للرجل المرافق للمرأة أن يراها فى فى غرفة تبديل الملابس كنت أعطيها رأيى وأنا مغلق الفم رافعاً حواجبى بجيد أو بلا جيد وفى المرة الثانية أمسكت بذراعى وجذبتنى داخل الغرفة وهى تضحك وتخبرنى أنها هى من تتعرى ولا داعى لخجلى وتقف واضعة كفيها على خاصرتها كاسرة قدمها اليسرى لتسألنى:

– ما رأيك ؟

أجيب فى انهيار واستسلام:

– خارقة كعادتك.

فتقفز علىّ وتحيط وسطى بقدميها وتقبلنى بعنف أقابله بعنف أكبر غير عابىء بالمخابيل بالخارج الذين سمحت سياستهم من الأساس بدخول الرجل مع مرافقته حتى غرفة خلع الملابس، ننتهى من عناقنا وأعبث بأستك لباسها التحتى فأجذبه وأتركه يلدغ جسدها فتصرخ ضاحكة وتتوعدنى ، اتبسم ضاحكاً وأخرج، اغلق عليها الستار وأنظر إلى العاملات بالمحل فأجدهن يضحكن وكأنهن كن يتمنين أن يكن هن من بالغرفة، أحييهن بإيماءة من رأسي وأضحك من خبلهن هؤلاء المجنونات؛ رجل وامرأة بغرفة خلع الملابس، يفعلان ما فعلنا وهن يضحكن ؛يبدو أننى أهذى.

- كانت إسراء تتأبط ذراعى ونحن نسير دائما أو بالأحرى تحتضنها وتميل برأسها على كتفى غير عابئة بنظرات وتطفل المارة حتى انتقلت إلىّ عدوى اللامبالاة بالناس فأصبحت لا أحس ولا أكثرث إلا لوجودها كانت تحب المسير معى على كورنيش النيل بمنطقة المنيل لوقت طويل تتكلم أو تسمعنى، كانت تسقط منى كثيرا من فرط الضحك من تعليقاتى ولا تتمالك نفسها ولا تقوى قدمها على حملها؛ فأهرع لنجدتها وأحملها وأكف عن الكلام؛ فتضحك أكثر من تعبير وجهى الصامت؛ فأنفجر بدورى ونسقط سويا من فرط الضحك. كنا نتوقف عند جزء فى كورنيش المنيل، جزء بلا سور يطل على المياة مباشرة، كان قد توقف عنده الممثل أحمد السقا فى فيلم عن العشق والهوى. كانت إسراء تحب الجلوس هناك، تنكمش بجانبى أو تتدثر بى نحتسي مشروب الحمص الساخن بالشطة والليمون، تتكلم كثيرا وتصمت كثيرا، احترم صمتها ولا أقاطعه تلتفت وتنظر فى عينى فلا أتكلم وانظر فقط، تتحرك شفتاها وتهمان بالكلام ثم تصمتان فأبتسم وأضمها لجسدى وننظر للماء. كانت إسراء تعشق الجلوس بذلك المكان فى فصل الشتاء؛ كنت أتجمد من البرد وأستمر بالجلوس لأجل خاطرها ونقوم عندما تكتفى من الجلوس وهى تكاد تكون متجمدة من البرد ولا تقوى على المسير. أضحك من رغباتها الغريبة وعنادها وبشرتها التي تحولت للون الأزرق من تأثير البرد والتى سرعان ما تزول تحت مياة الحمام الدافئة التي تصر على أن نتشاركها سويا كأول مرة، تلتصق بجسدى كله وتتكوم بيديها ووجهها وعينيها المغمضتين فى صدرى وتترك لحرارة جسدى وللماء الدافىء مهمة تدفئتها. ترشف أحيانا رشفات من الماء من فوق صدرى أضحك وأستعيد ما رشفته من فوق جبينها.

لبشرة إسراء طعم الفانيليا لا أدرى أخلقت هكذا أم أنه حرصها الدائم على الإعتناء بنفسها. كنت أنا الذى يحتضنها بجسدها الضئيل البض، ولكنى كنت أحس أننى فى حضن أمى،

كنت أتعجب من تلك الطمأنينة التي تسرى فى روحى وأنا أحتضنها كنت من بين حنينى وذهولى أبسمل وأنا أحتضنها وأحيانا أردد الشهادة وكأننى أصلى، كان يختلط على الحق بالحرية فأضحك وأبكى وأضمها أكثر ولا يتوقف عقلى عن التفكير ولا تكف عينى عن البكاء، كنت أبكى أحياناً وأنا أحتضنها تحت الماء حتى تختلط دموعى بالماء وحتى لا ترانى وأنا أبكى؛ فتنزعج لم أكن أتطهر أو أبكى من الذنب فأنا لم أكن أشعر مع إسراء بالذنب، كنت أشعر معها بالصدق كنت أصدق وأقرب وأطيب ما أكون وأنا معها، لم أكن اكذب عليها أو أخدعها، كنت أحب صحبتها، كنت اطمئن لوجودها وارتاح لرفقتها، كنت اتصرف كطفل وأتوحد كناسك.

ببداية شارع نوال فى منطقة الدقى توجد نافورة مياه تتجه مياهها كلها للداخل وتلتقى فى المنتصف تماما نحو مصدر أخر للماء كنت أمر على تلك النافورة كأى عابر ولا أعيرها اى اهتمام حتى توقفت عندها إسراء فى ذات يوم وترجلت من السيارة لتقف أمامها، كان الوقت فجرا ولم يكن هناك مارة، ترجلت بدورى لأقف بجانبها ورحت أتأمل المياه المندفعة فى شغف وانبهار؛ كأنى أراها للمرة الأولى، فلون الماء كان أقرب للكريستال، وقطرات الماء الكثيفة المندفعة كانت تبدو فى منتهى الفرح كمن يسابق بعضها بعضا إلى ما لا نهاية وتبدو كانها حبات نور وليست حبات ماء تندفع وتطير وتقفز وتضحك، كان المشهد جميلاً وخلابا كمشهد فى رواية أو منظر فى فيلم حتى أن النافورة احتلت نظرى ووعيى؛ فتخيلت قطرات المياه الكرستالية تتحولن إلى فتيات رشيقات يرقصن فوق وحول الماء ويطرن بأجنحة من كريستال شفاف كأفلام والت ديزنى. انتزعتنى إسراء من خيالاتى عندما تخلت عن سترتها وقفزت إلى النافورة تجرى تحت مائها ويبتل شعرها وملابسها سريعا كمن كان يتعطش الماء لبلها ووقفت فى منتصف الماء وأخذت تصرخ بصوت عال وأنا أتلفت يمنة ويسرة أراقب الشارع فلا أجد أحداً وهى مازالت تصرخ وتضحك حتى استيقظ أحد

القاطنين فى البناية المقابلة على صياحها؛ رجل وقور فى أواخر الستينات أخذ ينظر اليها ويضرب كفا بكف ثم نظر لى وصاح:

- فلتأخذ زوجتك المجنونة وترحلا من هنا يا بنى.

- ليست زوجتى، أيها الرجل الطيب.

تضحك اسراء وتقول:

- من قال أننى أقبل الزواج بك.

وتقبض حفنة من المياة وتلقيها فى وجهى.

يردف الرجل الوقور:

- فلتأخذ زوجتك العاقلة ولترحلا من هنا حالاً.

اضيف مجددا

- أخبرتك أنها ليست زوجتى يا هذا.

تضحك إسراء وتصيح بالرجل:

- أنا لا أعرفه، هو شخص غريب توقف لمغازلتى

يصيح الرجل بنفاذ صبر:

- إرحلا أنتما الأثنين من هنا ايها المجنونان.

ويندفع بحدة داخل شقته، أتوقع أن يتصل الرجل بالشرطة، فأغطس فى الماء وتتجمع حولى الفراشات الكريستالية مُرحبة، فأبتل تماما وأحمل تلك المجنونه على كتفى وهى لا زالت تضحك.

- سوف أضعك فى حقيبة السيارة حتى تتوقفى عن جنونك ذلك.

والقيها بالفعل فى حقيبة السيارة وهى ما زالت تضحك، أذهب إلى مقعد القيادة وأتوقف وأدور على عقبى وأعود إليها لاجدها لازالت تضحك.

- لماذا لم ترحل أيها المتجبر؟

أرد بإستسلام:

- أنا لا أجيد القيادة.

أنا لم أكن أجيد القيادة حتى ذلك اليوم، والذى اصرت بعده إسراء على تعليمى القيادة فلا يصح ألا أجيد قيادة السيارات وأنا أجيد قيادة أى شيء، على حد تعبيرها.

ترجلت إسراء من حقيبة السيارة وأخرجت ملابس جافة تحتفظ بها دائماً وفوجئت بها تخرج لى ملابس جافة أنا أيضا، فأخبرتنى أنها تحتفظ لى بملابس جافة فى البيت وفى السيارة أيضا، فى حال احتجت لها، وكنت بالفعل أحتاج لها بعد أن ابتلت كل ملابسي وكان الجو شتويا قارصا ودلفنا داخل السيارة لتغيير ملابسنا وفوجئت بها تحتضنى وتقبلنى بحرارة، أقاطعها لأتكلم:

— نحن بالشارع والرجل لابد انه اتصل بالشرطة.

تقاطعنى وتضيف:

— اصمت.

وتستمر فى تقبيلى، كانت مندفعة وكأن الماء اصابها بحمى. لم يستغرق الأمر طويلا حتى هدأت وأخبرتنى أنها كانت ترغب أن تفعل ذلك تحت مياه النافورة ولكن الرجل الوقور ظهر.

كانت إسراء فى مرات قليلة نادرة تبوح وتفيض فى البوح خاصة وهى فى صدرى والليل يسكت كل الأحياء والقمر مكتمل والشتاء يلذع ببرده اللطيف، كانت تحب أن نفترش الأرض فى الشرفة المطلة على النيل ، تتقوقع فى صدرى كطفل صغير وتنكمش وتتشبث بقميصى بقوة كأنى سوف أتخلى عنها أو أفر هاربا ، كانت تتكلم وكنت أستمع ، أنا مستمع جيد ، كان ذلك يضفى راحة عليها ، وكنت أحب إن أفعل الأشياء التي تضفى راحة عليها كما كانت هى تفعل الإشياء التي تسعدنى ، تنكمش إسراء وتسترسل فى البوح:

- أنا أكره ما أصنع أكثر ما أكره، أكره أن أفتح قدمي، لأغبياء شبقين، فيتسلل إلي رحمى حيوان غبى، لا يدرك شيئا عن طبيعة المرأة أو عن احتياجاتها، كل ما يملأ رأسه غريزة غبية وسريعة، قد ابتسم أو أطلق آه، إلا أنهم عندما يشيحون بوجههم وهم عادة يفعلون؛ أثبت عينى فى السقف كأنى تمثال من الشمع وأصمت أو أنقلها إلى المرآة بجانبى وأمارس هوايتى فى كراهية نفسي قدر استطاعتى، أرغب أحيانا أن اضع فى خصر أحدهم حزاماً ناسفاً أو ألقى به من النافذة أو أنهال بحذائى على رأسه وألقى به فى مسقط البناية كأى فأر.

كل من عرفنى رغب فى جسدى ، لم يكلف نفسه حتى عناء المرور على عقلى أو مشاعرى ، حتى أصدقائى بالجامعة كانوا يبدأون بداية طيبة ، ثم تظهر عليهم أعراض الذكورة والبله وتتدلى غرائزهم بمجرد أن أبدو ألطف أو تزداد ابتسامتى أو أزيد مساحة الود بيننا ، فيظهر الخبيث على طبيعته ويتحول الطيب إلى أبله.

الكل كان يريدنى غصبا أو عرفا، الكل كان يطمع فى جمالى الصارخ وأنوثتى الطاغية على حد قولهم ، لم يخبرنى أحدهم أنه يطمئن لعقلى أو يأتنس بروحى الطيبة ، لم يعلق أحدهم على تفوقى ونبوغى. أنا أكره الزواج والتحول إلى شىء ينتظر شيئاً ويربى أشياء، منذ أن تحولت أمى إلى أنسان آلى يربى ويطبخ ويغسل ويتحمل أبى، ذلك الرجل الكبير الوقور، الذى أدمن الزواج من فتيات صغيرات.

كنت أحيانا أرغب أن أطلب منها أن تتوقف عن ما تفعل ، وألا تفعله طالما يؤذيها كهذا، وكنت أنا نفسى أحياناً أحس بالضيق، عندما أتذكر أنها تفعل ما تفعل ، ولكنى كنت أخشي أن أطلب منها ذلك فتطلب منى أن نرتبط أو نلتزم ببعضنا البعض ، وأنا خبرتى عن الإرتباط سيئة ومؤلمة، أنا آخر وأسوأ من يمكن الإرتباط به أو الإعتماد عليه ، ولأننى أعرف ذلك وأدركة لم أحاول الإرتباط بأحد ولم أطلب من أحد أن يرتبط بى ، كنت أسعد

بصحبة النساء ، فقط أسعد بصحبتهن ، ولم أكن أفرط فى علاقاتى ، كنت أكتفى بإمرأة واحدة فقط، وعندما تصل العلاقة بيننا للجمود أو الصدام أرحل فى هدوء ، وهو ما لم يحدث مع إسراء، فعلاقتنا امتدت ولم يعكرصفوها أى منا، إلا أن إشفاقى عليها كان يزيد عندما تسترسل فى الحكى ، ويزيد أكثر وأكثر عندما تبكى بحرارة ، وتكاد دموعها تنسل لصدرى عبر قميصى ، كنت أتركها تبكى كيفما شاءت ، وأربت على كتفيها فقط ، لم أكن أتكلم ، كنت فقط أنصت، ربما أقبلها فى رأسها وهى تبكى، ربما أضمها أكثر، ربما أفهم منها دون بوح، ألا ارحل عنها، أو أسام منها ، كنت أخبرها إننى هنا، بجانبها، لن ارحل عنها أو أسام منها، نحن أصدقاء وسنظل أصدقاء، كانت ترفع وجهها وتنظر فى عينى بإمتنان وحب عندما أخبرها بذلك، ثم تعود وتدفن وجهها فى صدرى وتبكى أكثر، كنت أتساءل أتبكى لأننا سنظل أصدقاء فقط أم لأننى قد لا أكون صادقا فى وعدى وأتركها وأرحل عنها، أم أنها تفكر فى شىء آخر، لم أكن أحب أنا أن أفكر فية أو أطرحه. كانت علاقتى بإسراء هكذا أعدل للطرفين، نحن سويا عند الحاجة، أكثر من ذلك، كان سيفسد العلاقة، وهو ما كانت تقنع وتسعد به باستثناء نوبات البكاء والاعتراف تلك ، وهو ما استمر بينى وبينها، نحن أصدقاء فقط ، ومتواجدون سويا عند الحاجة، الحاجة الجنسية أو الحاجة النفسية، أو الحاجتين معا، فنحن تقريبا لم نفصلهما عن بعض ، ولم نحددهما هكذا ، كنا نلتقى عندما يحتاج أحدنا الآخر، وأكثر لقاءاتنا لم يكن يتخللها الجنس، ربما نتكلم أو ناكل أو نتسكع سيراعلى أقدامنا، حتى لقاؤنا الجنسي كان يأتى من تلقاء نفسه، لم أذكر أننا حددنا له وقتا أو اتفقنا على أن نلتقى لنفعله ، وربما أصبح الجنس أخر أولوياتنا، كنت آنس بإسراء وكانت هى تطمئن لوجودى، وهو ما كنت احتاجه وما كانت هى إيضا تحتاجه، وما كان أى بشر دائماً يحتاجه ويبحث عنه، رفيق يطمئن بوجوده ويأنس بصحبته، رفيق يسعده، لا يقيده، رفيق يمنح وفى نفس الوقت يسمح، يسمح بالخصوصية والإستقلالية والمزاج المتغير أو المتقلب، يسمح بالرغبة فى التوحد أو النأى، يسمح بعدم فرض العلاقة أو تحديد وقت أو مسمى لها.

كنت أحيانا أستحم أنا وإسراء سوياً ولا نمارس شيئاً، كنت أحيانا أبيت معها ليلتى فتستلقى بجانبى شبه عارية طوال الليل ولا نفعل شيئا، فقط تتدثر بجسدى وأستمتع أنا بعبيرها، كانت تخبرنى أنها أدمنت رائحة جلدى، وكنت أخبرها إننى أدمنت رائحة شعرها، كانت أحياناً تخلع عنى ثيابى وتجلسنى بالحمام كأم لتغسل جسدى بيديها جيداً حتى تظل رائحة جلدى طيبة دائماً وكنت أستسلم لها كطفل، كانت تصمت عن نوبات بكائى القليلة غير المسببة وتحتضن رأسى فى صدرها ولا تسألنى لماذا أبكى ولا تعتبر ذلك ضعفا بى، كانت تغطينى عندما أجفل وتضمنى فى حضنها الصغير حتى أستيقظ، كانت لا تكذب على مطلقاً، ولا تعبس فى وجهى ابداً ، كانت تعرض علىّ كثيرا أن تقرضنى نقوداً فنحن أصدقاء ، كنت أشكرها وأنظر اليها معاتباً وأصمت ، وكانت تكرر عرضها فى كل مرة تحس أنه ليس لدى نقود فى جيبى، كنت أحتضنها وأطلب منها أن تكف عن ذلك العرض، كانت تقرأ ما أكتب وتثنى علية وتتعجب من عاداتى فى الكتابة، فأنا أحب أن أكتب أحياناً وانا عارى أو جالسا فى الشرفة أوعلى رخام الحوض بالحمام ونادراً ما وجدتنى أكتب على المكتب أو فى وضع طبيعى ، كانت لا تسأم من كسلى ومزاجيتى ، كانت أحيانا تقول أنها لو تزوجت ورزقت بطفل سوف تجعله عاريا طول الوقت مثلى، وتقبل بطنه ومؤخرته من آن لآخر.

أكثر الحقائق وضوحاً ... أكثرها مراوغة

كنت أحب المساجد والكنائس القديمة، كنت أحب مشاهدتها، وأحيانا الجلوس بها، كنت أحب ذلك الإحساس بقدسية المكان، وان الرب حاضر أو متجلٍ أو محيط أو قريب، كنت أحب ذلك الإحساس بتلك الطاقة التي تتسلل إلى عقلى وروحى وجسدى، تلك الطاقة التي لم تكن توجد إلا بتلك الأماكن التي يطلق عليها بيت الله أو بيت الرب، كنت أحياناً أذهب وأمتثل وأصمت ولا أصلى، كنت أجلس فى حضرة الإله، كنت أتأدب وأنتظر وأستمتع بتلك الراحة والطمأنينة، طمأنينة من يستمتع بالجوار، طمأنينة من يستمتع بالإمان، كنت أحضر زفاف أحد أفضل وأطيب أصدقائى المسيحيين فى الكنيسة وحيداً فى الصف الأخير عندما تجلى صاحبى بجانبى فجأة كعادتة لأسأله بهدوء من تعود حضوره:

- كيف تتجلى هكذا، فى بيت الرب
- أنا تجليت للرب فكيف لا أتجلى فى بيت من بيوت الرب.

وبدون أن أسأله استرسل فى الكلام أو بالأحرى فى الإجابة عن طن الأسئلة الذى يسيل فى عقلى عن ماهية الرب وتاريخه وحقيقته، وكنت قد اعتدت أن يقرأ ما فى خلدى، فأخذت أنصت فى صمت وكنت أجيد الإنصات خاصة فيما يتصل أو يتعلق بالحقيقة وكأننى ورثت شغف جدي وبحثه الدؤوب المتواصل فى ذلك الدرب عن تلك الحقيقة المراوغة التي تظهر فى نهاية الدرب، وعندما أصل إليها أكتشف أن ليس للدرب نهاية وأكتشف فقط أن أكثر الحقائق وضوحاً أكثرها مراوغة ، وأصمت وأنصت وصوت صاحبى يتسلل إلى أذنى وكأنه يأتى من جُبّ وهو يقول:

- أنت لم تكن هناك، أنت قرأت أو سمعت، أنا كنت هناك، أنا رأيت وسمعت.

يؤمن المسيحيون أن يسوع كان إلهاً في جسد بشري، وهم يوقنون بهذا ويرتاحون لهذا اليقين والتفسير، لأن هذا يعنى لهم أن الرب يفهمهم ، وانه ليس ذلك الإله الذى يعيش في السماء البعيدة وانه يمكنه تفهم كيف يشعرون بالإلم والخيانة والأذى والقهر، بهذ الكيفية، كيفية التجسد، وفي تلك الحالة أقترب منهم الإله أو الآب أو الرب الراعى.

ولكن إذا كان يسوع هو الرب، فمن الذى كان يحمى ويدير العالم عندما مات لمدة ثلاثة أيام؟ ولمن يصلى المسيحيون اذا كان عيسى هو الرب، وقد مات؟

كما أنه لا يمكن للرب أن تكون له أم! كيف لمريم وهى سيدة من البشر أن تلد بشرا ليكون الإله ، الإله لابد إن يكون خالقا وليس مخلوقاً أو جزءًا من مخلوق، حتى مع الأخذ فى الإعتبار قولهم أن يسوع من روح الله، فكل المخلوقات من روح الله.

الرب هو الخالق الوحيد للقوانين والمادة والمخلوقات ولكونه الخالق فمن المنطقى أن نفهم أن هذة القوانين لا تنطبق عليه، وأحد هذه القوانين هو قانون التكاثر أو التناسل والذى يعد نقطة جوهرية فى فهم حقيقة يسوع كنبي وليس كإله وهناك أربعة أدلة تدل على أن القوانين الإلهية لا يمكن لها أن تنطبق على الرب أو الإله:

1- خلق آدم من غير ذكر أو أنثى.
2- خلقت حواء من ذكر فقط بدون أنثى.
3- خلق يسوع من أنثى فقط من دون ذكر.
4- خلق باقى البشر من ذكر وأنثى.

لقد صور يسوع وتم تلقيبه بالإله بعد مرور 325 عاما من ميلاده ، فى مجمع نيقيه بعد إصرار الإمبراطور الرومانى قسطنطين على عقد إلاجتماع، وهو الذى ادعى اعتناقه للمسيحية ليجعل منها الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية وذلك لأسباب سياسية بحته؛وهو كبح جماح الفتنة الناجمة عن تصادم العقيدتين الآريوسية والأرثوذكسية، فقد أنكر آريوس أزلية يسوع بناءً على أنه كان هناك وقت لم يكن يسوع موجودا فيه, واعتبره رفيعا بين مخلوقات الله ومِنْ صُنْعِهِ, كما اعتبر أن الروح القدس من صُنْع الله أيضا. بينما أكد الكسندروس الأول (بابا الإسكندرية) علي أن طبيعة المسيح هي من نفس طبيعة الله وتغلب رأي الكسندروس الأول (بابا الإسكندرية)، على الرغم من أن الإمبراطور نفسه كان فى الحقيقة وثنيا، أى أنه كان لا يعتقد أو يؤمن بالإله ولا يتقيد بأى بعقيدة، وتم التصويت فى المجلس على أن طبيعة يسوع هى نفس طبيعة الرب، وبعبارة أخرى؛ هو هو، أى هو الرب، وتم إلاقتراح والتصويت على ذلك فى نفس الوقت وفى نفس المجلس، وحتى ذلك التاريخ كان اتباع يسوع يعتبرونه رسولاً وبشراً فانياً، وقام أيضاً الإمبراطور قسطنطين بإختيار الأسفار التي يجب أن تضاف إلى العهد الجديد دونا عن غيرها وعددها 80 سفرا لتشكل إنجيل العهد الجديد ولقد كلف ودفع تكاليف تشكيل ذلك الإنجيل الجديد وقام بإتلاف كتب الأسفار التي تحدثت عن المسيح كرجل فان وقُدِّمَت وقُدِّسَت تلك الأسفار التي صورته كإله، وتم إلغاء الأسفار القديمة بجمعها وحرقها، وهكذا دخلت إلاسفار الأربعة ماثيو(متى) ومارك (مرقس) ولوك (لوقا) وجون (يوحنا) إلى إلانجيل الجديد

والنصوص الأصلية للإنجيل الإصلى موجود نسخ منها فى المواقع التالية :-

1- مخبأة فى مكتبة الفاتيكان الخاصة والمحمية.
2- فى جبال أثيوبيا البعيدة.
3- محفوظة بلغة أفريقية قديمة تكاد تكون مفقودة.

4- فى بعض الكنائس القديمة فى الشرق الأوسط.

5- وبالطبع فى مكان ميلاد المسيح " القدس "

وفى تناقض تام للمسيحية اليوم، فإن رسالة إخوة يسوع تصفة كسيدهم وليس كاله لهم.

فهم يرون المسيح كبشر أنعم الرب عليه، وبالنظر فى كتاب أو إنجيل جيمس '' وهو أحد الأسفار التي لم يتم اعتمادها في المجامع الكنسية التي أعتمدت أناجيل محددة وجمعتها في كتاب تم أختيار أسم "bible" بايبل بالاتينية وترجمتها الكتاب وما عداها من اناجيل تصنف كأناجيل منتحلة بمقابل الأناجيل الكنسية القانونية ". فإنه يتكلم عن تعاليم عيسى وليس التعاليم عن عيسى ، لقد قام جيمس بتوصيل ما تلقاه من يسوع، ورسالته ليس لها علاقة باللاهوت ومع ذلك فإنه يرتبط بنظام اللاهوت ولكن هذا النظام هو لاهوت يسوع وليس اللاهوت عن يسوع فى الإنجيل، ورسالة جيمس لا تحكى عن صلب يسوع أو عن دمه ولا تذكر أن غفران الذنوب يكمن فى الإيمان بأن يسوع هو الإله.

والنسخة البديلة من رسالة يسوع يمكن إيجادها فى نصوص أخرى إيضا، ففى الحى اليونانى فى مدينة القدس القديمة، يوجد كتاب آخر قديم جداً لم يتم إدخاله فى الإنجيل الجديد، إنه أكثر الكتب طعنا فى الوثائق المسيحية القديمة وقد تكون أقدم من الأسفار نفسها، ويملك مطران الكنيسة اليونانية النسخة الوحيدة الكاملة لكتاب قديم كتب خصيصا لمعتنقى المسيحية الجدد والذى جمع بينما كانت عائلة يسوع لا تزال حية ، يعطى هذا الكتاب فكرة مباشرة لما كان المسيحيون القدامى يعملون وكيف يفكرون،

ولم يتم تصوير هذا الكتاب من قبل مطلقا ، يحتوى هذا الكتاب التعليمى على مجموعة من الأخلاق المسيحية المستقاة من تعاليم يسوع إلاصلية وبعض التعليمات للطريقة المناسبة للتعبد، ويشكل هذا الكتاب خطراً كبيراً على الكنيسة اليوم وذلك بسبب ما لا يذكره، فهو لا يذكر شيئاً عن ولادة العذراء ولا يذكر شيئاً عن البعث وفوق كل ذلك لا يوجد ذكر ليسوع كإله.

وهذه هى المشكلة فعلى مدي ألفى عام، عانت الكنيسة فى محاولاتها للتوازن بين يسوع كإله أو ككائن بشرى ولكن صورته كإله هى التي هيمنت فى النهاية، ففى خلال تلك المحاولات للتوازن، ضاعت إنسانية يسوع الجوهرية وإنسانية تعاليمه.

فى إنجيل جودا (يهوذا)، يوجد مقطع يدين مجموعة من الأشخاص الذين يفسدون الإيمان الحقيقى بسرية والذين كانو معرضين من قبل للتعرض لتلك الإدانة وبتحليل هذا النص يوجد تحذير واضح أن الحركة الجديدة ستفقد ارتباطها بتعاليم يسوع الأصلية.

و«إنجيل يهوذا»، وثيقة تم اكتشافها حديثا في صحراء بنى مزار من قبل فلاحين في أحد الكهوف، وذلك عام 1972،. وهو الإنجيل الذي عرف بأنه ضمن مجموعة وثائق نجع حمادى. وإنجيل يهوذا يوضح أبعادا مختلفة لعلاقة هذا التلميذ بيسوع، عما هو وارد في أناجيل متى ومرقس ولوقا ويوحنا، حيث لا يصور المخطوط يهوذا بانة خان يسوع، وسلمه للرومان نظير 30 قطعة من الفضة.

وفى هذا الإنجيل أيضا ما معناه أن يسوع يخاطب يهوذا في نهاية الإنجيل المنسوب إليه ويقول له أنه (أي يهوذا) سوف يختلف عن باقي الحواريين، وأنه سوف يكون الرجل الذى يضحى به كشبيه لي.

ويبرز المخطوط هجوم يسوع على الكهنة والأتباع، ويدعي أنهم سيسوقون شعب الكنيسة إلى الذبح كالقرابين، وأن تلاميذه كلهم على باطل، وأنهم أشركوا وكفروا بالإله الحقيقى، رب يسوع.

وأن سر الخيانة المقدس، تم بناء على طلب يسوع نفسه من يهوذا ليخونه ويسلمه لليهود حتى يصلب ويقدم الفداء للبشرية بموت جسده على الصليب.

فى الوقت الذى كتب فيه يهوذا هذا الكلام كان باستطاعته ان يرى أنهم يخسرون وأنها دعوة للمعركة، دعوة للتسلح دينيا، إنه لا يتحدث عن أناس من الخارج هو يتحدث عن أناس يدعون أنهم جزء منهم ولا يقومون بتدريس ما سلم لهم ، ولما بدأ يشعر بالخطر بدأ يخبر المجموعة الصغيرة التي كانت ما تزال تستمع اليه بألا يستمعوا لكل تلك الأشياء الجديدة، وأمرهم بأن يقاوموها بكل ما لديهم من قوة للدفاع عن الإيمان الحقيقى الذى أعطى لهم، وأن يحافظوا على ويتبعوا تقاليد العائلة.

الفاتيكان

ذلك التاريخ البابوى، الممزوج بالخيانة والنفوذ والجشع والقتل تحت راية المسيح، خلال ألفى عام من ظهور أكبر طائفة دينية فى العالم، أثبت باباوات كثيرون أنهم لا يصلحون مندوبون للرب على الأرض، مئات السنين يحكمون العالم من روما بطرق بعيدة للغاية عن تعاليم المسيحية، والبابا هو سيد الفاتيكان، أكبر مؤسسة مليئة بالغموض على وجه الأرض.

ماذا كان يحدث وراء كواليس التاريخ ؟

كيف استطاعت الديانة المسيحية الصعود من الدولة الرومانية إلى دين عالمى ؟

يسوع الناصرى، من أجل غفران الخطايا، ضحى بحياته وأضطُهد وأُهين ومات على الصليب، حقيقة أم أسطورة ؟

وصايا النجار من مدينة الخليل، هى تحاشى العنف وحب الجار والإنسانية والتسامح، ولكن تاريخ المسيحية ملىء بالعنف والحقد والتعصب والكراهية، يسوع كان مختلف التفكير ، ولهذا اضطُهد وقُتل، والحكم الكنسي السلطوى ورغبته الشمولية خلف ضحايا لا حصر لها، يسوع عاش حياة متواضعة كان لا يملك جيشاً ولا أسلحة، رسالته كانت المحبة والسلام، والكنيسة قادت حروب دينية باسمه ولم تسمح لأحد بالإعتراض ومن اعترض استخدمت التعذيب والقتل والتآمر، ومن أجل أن تكون الديانة المسيحية ديانة عالمية أباحت الكنيسة كل الوسائل.

كيف حدث هذا ؟

ما هى الأسباب التي أدت إلى الرجوع عن تعاليم المسيح ؟
هل تعلمت الكنيسة من ماضيها ؟
الإجابات موجودة فى المدينة المقدسة، مخبئة وراء جدران الفاتيكان، معقل القوة الكاثوليكية، كنيسة القديس بطرس، ذلك الصرح، فخر الديانة المسيحية.

منذ القرن الرابع عشر الميلادى والكنيسة الفنية المزخرفة مقر البابوية ومذبحها بمظلته البرونزية الذى يمتد امامه مباشرة مدخل قبر القديس بطرس، يسكن الأب المقدس " البابا " قصراً منيفا مؤلف من ألف وأربعمائة حجرة، وسيداً لأكثر من أربعة ألاف أسقف، حكم الباباوات يمتد لأكثر من ألف وسبعمائة عاما مضت ولكن قلة منهم فقط التي عملت بالتعاليم.

نشأة الديانة المسيحية نفسهااستندت على أسطورة، وهى انه بعد 60 عاما من ميلاد المسيح، كون المسيحيين الأوائل أنفسهم فى الخفاء، فقد كانت الدولة الرومانية تلاحقهم بلا رحمة، فديانتهم غريبة وترى على أنها خرافة ممنوعة، وكان بإمكانهم العبادة فى الخفاء فقط، وفى هذا الزمان فى روما، تواجد تلميذ يسوع الحقيقى، بطرس الصخرة، أول أسقف للكنيسة الكاثوليكية، ومن المدهش أن اسمه لم يظهر فى أى سجل إدارى للدولة الرومانية القديمة، حتى الأناجيل نفسها لا تصفه على أية حال بأنه رجل يصلح للحكم أو للقيادة ، بل بكونه رجل ضعيف الإيمان!
هل كان حقا بطرس فى روما ؟
هل قاد فصائل التمرد للمسيحين الأوائل ؟

اذا كان بطرس فعلا فى روما، وتواجد مع هؤلاء المسيحيين الأوائل وعمل معهم، لا نستطيع القول بأنه قدم نفسه كزعيم روحى، لقد كان صيادا، وكان لا يعرف شيئا،

هناك كان التحدث باللاتينية، وهو كان لا يتحدث كلمة لاتينية واحدة، واذا كان قد قدم نفسه ليصبح أول بابا، وعلمه بأن هذا سوف يصير شيئا عظيماً، كل هذا هراء، والكنيسة تعيش من مثل تلك الأساطير والإيمان بها.

حريق روما 19 يوليو عام 64 للميلاد، إحدى هذه الأساطير، لهيب نار زاحف دمر جزءًا كبيراً من المدينة، شائعات قالت بأن القيصر نيرون هو من أشعل بنفسه هذا الحريق، أما الحقيقة فهى أن نيرون كان على بعد 50 كيلومترا فى مدينة انسيوم مسقط رأسه.

والطائفة المسيحية وبطرس فى مأزق، فتحت تأثير مستشاريه ، جاء نيرون بضربة ضد المسيحيين وحدثت مذابح شنيعة واعتقالات ومحاكمات صورية وأحكام بالإعدام والتهمة هى إشعال حريق، وطبقا لرأى التاريخ الكاثوليكى تم أيضا اعتقال بطرس على يد الحاكم نيرون والموت ينتظره، مثل معلمه، وينبغى أن تكون نهاية بطرس على الصليب ولكن الحوارى صنع معجزة طبقا للأسطورة وحول رأسه إلى الأسفل على الصليب وفى نفس الليلة أخذه أتباعه من على الصليب ووضعوه فى جدار بالقرب من سيرك مكسيموس وهو المكان الذى توجد فيه قبة كاتدرائية بطرس، والعبارة التاريخية التى من المفروض أن يسوع قالها لبطرس " أنت بطرس وعلى هذه الصخرة سوف أبنى كنيستي ". هل تحققت نبوءة يسوع فى النهاية بهذة الطريقة المروعة ؟

ووقوع بطرس المسكين وأتباعه فى يد أسوأ قيصر رومانى وهو نيرون، كل هذا مختلق، فلا توجد هناك اى ادلة حقيقية، وواحدُ منهم والمتحدث باسمهم أو الذى يقودهم أو كبير القساوسة أو كيفما يطلقون عليه يزعم بأن بطرس تم صلبه ورأسه

إلى الإسفل محض خرافة خالصة، بل والأعجب عندما يقول الباباوات إن بطرس موجود هنا بالضبط فى المكان الذى يوجد به الفاتيكان اليوم طبعا وهناك تحت كنيسة بطرس نحتاج فقط إلى الحفر لنجد عظام هذا الصياد الذى أتى من الجليل.

فى خلال مئتى عام بعد موت بطرس ازداد تعداد الطائفة المسيحية بقوة ولكنهم كانوا لا يستطيعون ممارسة عبادتهم بحرية بعد ، وفى 28 أكتوبر عام 312 ميلادية ظهر رجل على مسرح الأحداث ذو أهمية كبرى للديانة " " مرشح التاج القيصرى ، وعدوه ماكسينتيوس يتفوق عليه بعدد فيالقه ولكن قبل بدء المعركة بيوم ظهرت لقسطنطين رؤية كما تقول الخرافة؛ فعندما كان يصلى لإله الشمس " زال " من أجل مساعدته فجأة رأى علامة الصليب مضيئة امامه وصوت قال له بهذا الرمز ستنتصر، قسطنطين تمسك بها كمن يتمسك بقشة وأعطى لجنوده الأوامر بتغيير علامة الصقر إلى علامة الصليب وزيادة فى الدهاء علم قسطنطين إن فى الطرفين جنودا اعتنقوا المسيحية وظهور الصليب سوف يضعف من قوة العدو، وعند جسر " ملفيا " شمال روما دارت المعركة الفاصلة والقوات التي تحت راية المخلص انتصرت وقسطنطين حضر لخصمه هزيمة وإبادة جماعية، هل هذه علامة إلهية ؟ قوات ماكسينتيوس كانت تقاتل وظهرها لنهر التايبر وليس بامكانهم الإنسحاب، إنه خطأ استراتيجى فادح والذى استغله قسطنطين العسكرى المتمرس بدون رحمة، ومازالت الكنيسة الكاثوليكية تتباهى بهذا النصر الدموى وتسميه الفتح القسطنطينى، فهو الذى ساعد على انتشار المسيحية بالسيف ، إنه البداية لحلف مدمر بين العرش والكنيسة ، وبعد أشهر سمح قسطنطين بحرية العبادة للمسيحيين والديانات الأخرى، كما أمر باتخاذ الاحد عطلة للعبادة والصليب رمزاً للمسيحية، وأصبح أخيرا باستطاعة المسيحيين أن يتركوا عبادتهم فى الخفاء ويمارسونها فى العلن.

هل قسطنطين هو المؤسس الحقيقى للمسيحية ؟ ولماذا فعل ذلك ؟

لأسباب سياسية فالوقت كان قد حان وكان لابد له من أن يعمل على تكاتف الجيش والسلطة والأساقفة والديانة المسيحية، وفى القرن الأول لم يكن بالمستطاع تكوين دولة بطرس وبولس، وأخذت مكانة الأساقفة فى الإزدياد، وبالتالى من الممكن دمجهم فى جهاز الدولة وبذلك يمكنهم أن يحددوا قيمة الضرائب ومن الممكن أن تستغل إمضائاتهم ومن الممكن أن يوزعوا الأوامر والمراسيم وكل هذا تحت سيطرة القيصر وإيضا التستر على الفساد الموجود بإراقة مزيد من الدماء.

وفى عام 324 بعد ميلاد السيد المسيح سمح قسطنطين ببناء أول كنيسة لبطرس على تلة الفاتيكان وبهذا أسس نصب نواة السلطة الكنسية ولكن لم يجعل المسيحية هى الديانة الرسمية بل بالعكس احتفظ قسطنطين بلقبه " بونتى فاكس مكسيموس " ومعناها بالإلمانية " كبير حراس عبادة الآلهة " وهو اللقب الذى كان فى الأصل يحمله " كبار حراس عبادة الآلهة الرومانية القديمة "، وهذا اللقب يحمله كل الباباوات إلى الآن.

وسرعان ما وقع الأساقفة فى نزاعات حول تفسير العقيدة ولكن قسطنطين الحاكم الدنيوى تظل كلمته هى العليا فى النزاعات الكنسية، فالكلمة الأخيرة للقيصر فقط ، وهو شىء لا تطيقه الكنيسة وسوف يظل هذا الوضع لقرون عديدة حتى يتغير.

فى عام 330 غادر قسطنطين روما ونقل مركز الإمبراطورية الرومانية إلى بيزنطه التي أصبحت فى المستقبل القسطنطينية، وعمت روما الفوضى وحدث فراغ فى السلطة، وقامت على منصب البابا نزاعات دموية، كما حدث فى نهاية عام 366 عندما تصارع الأسقفان أوزينوس ودامازوس على كرسى البابوية وقامت معركة أمام كنيسة سانتا ماريا بين مؤيديهم فى الشوارع وفى النهاية تحصن مؤيدوا

أوزونـوس فـى الكاتدرائيـة فتسـلق أعـدائهم السـطح وقـذفوهم بالحجـارة والحصـيلة المحزنـة كـانت تزيد عن المـائة قتيل وداماسـوس أصـبح بابـا وظـل العنـف سـمة مـن سمات فترة حكمـه وعوضـاً عن هذا أعطـى لنفسـه كـأول بابـا الحـق فـى لقب خليفـة بطرس وأن يكون أسقف رومـا، ومنذ ذلك الحين يحمـل ذلـك اللقب كـل بابـا بالإضـافة إلى لقبه، واذا افترض أن بطرس كان فى رومـا فعلا فهو لـم يكـن بابـا ولا أسـقفا وبعـد مئات السنين على موته منح هذا الشرف.

الكرسي البابوى له قوة وجاذبية كبيرة، حتى أن كبار الكهنة المكلفين بوصـايا يسـوع، لم يتوانوا عن استعمال العنف من أجل الوصول إليه، وعقب هـذه الفترة سـوف يكـون هناك رجال أشد قسوة تنجح مساعيهم من أجـل الوصـول إلـى الكرسـي البـابوى، ولمـا كـان يوجـد دائمـاً خطـر خـارجى يهدد الكنيسـة. ففـى القـرن الثـامن عنـدما هـاجم " اللومبارد " إيطاليا وهم قبائل بربر ينحدرون من منطقـة بحـر البلطيـق، سيطر رعـب كبير على الكنيسة ، فالكنيسة لا تملك جيشا، فتوجه البابا ستيفان الثـانى فـى عـام 753 نحو الشمال إلى " بيبين " ملك الفرنجة العظيم ولم يكن قد حدث من قبل أن طلب بابـا المساعدة من حاكم دنيوى.

فى حقيبة البابا ستيفان كانت توجد وثيقة هامة للغاية، إنها وثيقـة هبـة مـن عـام 315 ، لـم تكتـب مـن أى شـخص سـوى القيصـر قسـطنطين شخصـيا والمسـماة " بالهبـة القسـطنطينية " وتحكـى قصـة مذهلـة، وهـى أن قسـطنطين أصـيب بمـرض الجـذام ونصـحه كهنتـه أن يسـتحم فـى فسـقية مليئة بـدماء أطفـال دافئة، وبـاتت أحلام مفزعـة تلاحق القيصر ذا المرض المميت، ولم يطاوعه قلبه فى الأمر بحمـام الـدم، وبـدلا مـن ذلك نصحه الحواريان بطرس وبولس فـى الحلـم، بـأن يعمد من البابـا " سيلفيسـتر "، وأطاعهم قسطنطين، وكانت المعجزة، فقد اصبح معـافىً، وعبر القيصـر عن شكره

بهبة كبيرة سخية، فلقد اعترف بأن سلطة الحاكم سلطة دنيوية فقط ، وسلطة البابا سلطة قدسية وطبعا أسمى، ولهذا رحل القيصر إلى بيزنطه ليترك مكانه للبابا فى روما ، وأصحاب كافة السلطات على روما وإيطاليا والمقاطعات يتولاها البابا.

وتأثرالملك " بيبين " وفى عام 755 واجه اللومبارد فى معركة وهزمهم هزيمة ساحقة وأجبرهم على الإعتراف بالسيادة العليا للفرنجة، والبابوية أنقذت وكل التركة عادت إلى الكنيسة مرة اخرى، ولكن وراء كل هذا تستتر عملية إحتيال كبيرة، فالبابا " استيفان الثانى" إستند على أكبر تزوير فى تاريخ الكنيسة الكاثوليكية، إن لم يكن هو بنفسه الذى أمر بتزويرها.

عندما يحاول المرء دائما أن يجذب ملايين من الناس إلى جانبه، فلن يستطع ذلك دون أن يلوث يديه، ولأن هناك تاريخ إجرامى للديانة المسيحية، ولا يزال حتى الآن أساقفة وكرادلة، متورطين فى هذا الوحل الإجرامى.

وبعد 700 عاما تنكشف الخديعة، فعالم الإجتماع " لورانسو فلا "، والذى عمل فى القرن الخامس عشر كمترجم ومؤرخ لملك نابولى، عند دراسته لهِبَة قنسطنطين، أكتشف أن البابا فى زمن قسطنطين لم يكن سيلفيستر، بل بابا اسمه " ملتيز " وعلاوة على هذا فإن الوثيقة تتحدث عن القسطنطينية بالرغم من أن المدينة كان اسمها بيزنطه فى هذا الوقت، فقط خطآن من أكثر من مائتين خطأ اكتشفهم العالم " فلا "، فخشى على حياته وأبقى اكتشافه سرا، وظلت حتى بداية القرن السادس عشر ثم نشرت ، ومازالت الكنيسة الكاثوليكية متمسكة بأن الوثيقة حقيقية.

وعلى أساس تزوير غير متقن استطاع الفاتيكان عبر القرون أن يدعم سلطته، وهى ليست الفضيحة الوحيدة فى تاريخ الفاتيكان ، ففى عام 1033 صعد طفل على العرش البابوى وهو البابا " بينيديكت " التاسع، وبرشوة أبيه نصب حبراً أعظم للكنيسة وبدلا من أن يمارس مهامه كحاكم للمسيحيين برسم أساقفة ومعاقبة المهرطقين بالحرمان الكنسي أسقط الكرسي المقدس فى أزمة عميقة، البابا الصبى عديم الحياء كان شهوانى مغامراته العاطفية تشبة مغامرات الحكام الدنيويين فى عصره ، مغامراته مع نساء روما تبرهن أن قداسته بلغ فى سن مبكرة وحياته الفاسقة أثارت الشعب علية مرات عديدة ونسبت إليه جرائم قتل ونهب وقمع واضطر للهروب من روما ثلاث مرات خوفا على حياته ولكنه يعود دائما وفى النهاية يستسلم للضغط عليه وباع منصب البابوية لأب عماده لتصل صورة الفاتيكان للحضيض.

السلطه وفيرة وقوية ولكن أخلاق سكان الفاتيكان ضعيفة وأخيراً تنحى البابا التالى وهذا لم يحدث طبعا عن طواعية ولكن تحت تأثير الضغط السياسي لشاب خارج إيطاليا، هذا الرجل هو " هاينرش " الألمانى الذى اختار البابا الجديد " كليمنز " الثانى وليشكر له اختياره توج " كليمنز " " هاينرش " فى نفس اليوم كقيصر.

وهنا بدأت فضيحة أخرى، فالبابا الجديد زعر عندما بادر " هاينرش " باستفزاز الفاتيكان إلى أقصى درجة، لقد بدل التاج الذى توجه به البابا بتاج يستعمله الرومان فى تتويج حكامهم، وبهذه الإشارة أكد " هاينرش " السلطة القديمة. وأنه الوحيد الذى له الحق أن يحكم المسيحيين، وهو ما كان خطأ كبيرا وقع فيه، فبعد عشرة أشهر فقط مات البابا كليمنز، وأصبح " جريجور " السابع خليفته وهو رجل يعتبره رجال الدين من أعظم البابوات فى تاريخ الكنيسة ، ولكن ماذا فعل هذا البابا ؟

" جريجور " يتبع هدفاً واحداً وهو أن يفعل ما بوسعه حتى يجعل سلطة البابا فوق السلطة الدنيوية ، فأعد مدرسة بأكملها للتزوير مديرها " انزلم فان لوقا " وضع الدكتاتوس بابه " dectatus papae " وهى وثيقة تتعدى أبعادها وثيقة هبة قسطنطين المشهورة، انه ميثاق للسلطة ينص على:

1- إن الكنيسة الرومانية؛ الرب وحده هو الذى أسسها.
2- البابا وحده هو الذى يستخدم شعار سلطة القيصر.
3- كل الأمراء يقبلون قدم البابا.
4- إسم البابا يكون فريداً لا مثيل له فى هذا العالم.
5- فى استطاعة البابا أن يعزل القيصر.
6- إن الكنيسة الرومانية لا تقع فى الخطإ أبداً وبشهادة الكتاب المقدس لا تخطىء أبداً.

ومن أجل أن تتخلص الكنيسة من سلطة الحكم الدنيوى ومن أجل أن تتحرر من سيطرة سلطة الحكام الدنيويين فقد كانت هناك وسيلة واحدة وهى أن الكنيسة ومرة أخرى البابا يجب أن تكون له السلطة المطلقة على كل شىء، فقط بالحكم الشمولى المطلق للبابوية، الذى يدعم السلطه الدينية للكنيسة الكاثوليكية بقدر المستطاع وكل الناس بما فيهم الملوك الألمان يركعون له، والرغبة التي اجتاحت باباوات العصور الوسطى فى ذلك الوقت هى أنهم عندما يهمون لركوب خيولهم فيجب أن يركع الملوك الألمان لهم فيضع الباباوات أقدامهم عليهم ليركبون خيولهم، هذا ما كان يدور فى مخيلتهم وهو كان أجمل شىء فى العالم بالنسبة لهم وكل الأشياء إلاخرى لا تهم، لا يهم أن يكونوا ملوكا أو قياصرة المهم هو أن تكون بابا.

ويأتى " هاينرش " بضربة مقابلة فيطلب من البابا " جريجور " أن يتنحى عن منصبه ويسانده عدد كبير من الألمان وكبار الأساقفة الإيطاليين فى طلبه، وهو ما كان يتوقعه جريجور فأحاطهم بسلاح الكرسي المقدس الفعال فى هذا الوقت وهو " التكفير "، أصدره فى حق هاينرش وأتباعه، ولم يحدث من قبل أن تجرأ بابا وهاجم حاكما بمثل هذة الطريقة، وأهتز النظام العالمى فى العصور الوسطى.

ماذا كان يعنى هذا للحاكم الألمانى، يعنى أن هاينرش لا يسمح له أن يدفن فى تربة مقدسة، وزواجه باطل، حتى قتله لا يُعاقب عليه، هاينرش من الناحية الدينية مهدر دمه ، وبدأ أتباعه يعرضون عنه.

وهو لابد أن يعترف أنه ارتكب خطأ سياسيا، إذا كان يود أن يحتفظ بمملكته، فلابد أن ينفذ العقاب، وهو الخضوع الكامل للبابوية، وفى شتاء عام 1077 بدأ السفر هو وزوجته وإبنه المولود حديثا عبر طريق جبال الألب الشاق والهدف كان حصن " كانوسا " لابنة عمه " ماتيلدا فون تُسّي " وفى منطقة التلال الطبيعية بالقرب من مدينة " مُدنا " ينتظر جريجور وصول الملك الشاب، وبعد عدة أيام من المفاوضات بينهما وعن طريق الوسطاء حُددت وسائل العقاب ، فقط مرتديا قميصاً من الصوف يسلم هاينرش نفسه أمام القلعة وكل متعلقاته الملكية قد سلمت للبابا ، وهاينرش يطلب الغفران ولكن جريجور يظل صلبا ، بفضل الباباوية التي وصلت لقمة سلطتها التي كانت بدايتها لصياد قادم من الجليل وأصبحت من أكبر مؤسسات الحكم التي شهدها التاريخ البشرى على الإطلاق إن لم تكن اسوأها.

والبابا جريجور لا يعرف الرحمة، لثلاثة أيام بثلاث ليالى، يترك قيصر الإمبراطورية الرومانية المقدسة يتجمد فى أشد موجة صقيع عرفها القرن وهاينرش يكفر عن جرأته حتى تجمد من البرد وازرق جسده واصطكت أسنانه ببعضها لقد كان أكبر موقف مهين فى تاريخ البشرية وفقط فى بداية اليوم الرابع وفقط من أجل توسل صاحبة القلعة ماتيلدا بإلحاح مستمر يلين جريجور ويرفع العقاب وقد حُسم صراع السلطة لصالح البابا.

وفى يناير 897 يقع أكبر حادث مروع فى التاريخ البابوى ، البابا " ستيفان السادس " يحكم الفاتيكان وفى قرار فى غاية الجنون يأمر بإخراج جثمان البابا " فوموس " السابق له من قبره بعد موته بتسعة أشهر من أجل محاكمته.
ماذا كان يبغى البابا ستيفان من وراء ذلك ؟

من الواضح أن الباباوات خلفاء يسوع على الأرض كما يدعون، لم يكونوا بأفضل من السفاحين وقطاع الطرق العاديين، فالبابا "ستيفان" أجلس جثة البابا السابق فى قصر " اللتران " بكامل زى البابا الرسمى فوق العرش وبدأت المحاكمة، والتهمة أن " فاوموسوس " قبل تولية الباباوية لم يكن حبراً لروما ولذلك لم يكن من حقة أن يصبح بابا، والغريب أن ستيفان نفسه قبل تقلده منصب البابا لم يكن أيضاً أسقفا لروما، واستمرت المحاكمة ثلاثة أيام ، وشماس خجول فى سن المراهقة مجبر أن يجاوب بدلا عن جثة " فاوموسوس " المتعفنه والميت لعن كعدو للبابا ، وفى النهاية أمر البابا ستيفان بقطع ثلاثة اصابع من يد البابا فاموسوس" اليمنى التي كان يمنح بها البركة.

فى هذا الوقت من العصور الوسطى ، كان يطبق قانون الغاية تبرر الوسيلة بشدة ، ومن أجل الوصول إلى غاية شريفة ، فقد كان يتم استخدام كل الوسائل الشريفة وغير الشريفة لتحقيقها ، والحياة فى الفاتيكان أصبحت بعيدة كل البعد عن حياة المسيح ، وستيفان السادس لم يستطع أن يفرح بنصره المروع طويلا ، فبعد عام من اختياره بابا أقاله شعب الدولة الرومانية من أجل المحاكمة الشائنة للجثة ، فالناس تخاف غضب الرب ، ودفنت جثة فاموسوس مرة أخرى ، والبابا الذى تمت الإطاحه به زج به فى السجن وعلاوة على هذا حُمّل مسئولية انهيار كاتدرائية " اللتران " وعقابا لتصرفه الشنيع مع الجثة يجب أن يموت وبعد عاماً فى السجن تم خنقه ولكن مع ذلك لم يجد فوموسوس المسكين راحته فبعد مضى عشرة أعوام فى عهد البابا " سرجيوس " أعيد إخراجه مرة خرى من قبره وأعيدت محاكمته، " سرجيوس " حضر أيضاً المحاكمة الأولى للجثة وتلك المرة قطع رأس جثة البابا السابق " فاموسوس " ورميت الجثة فى نهر " التيبر " ولكنها علقت فى شباك صياد ، واليوم يوجد الهيكل العظمى لها فى كاتدرائية بطرس.

بسرجيوس الثالث بدأت مرحلة ما يسمى بحكم الإباحية وحتى اليوم هذا تثير تلك المرحلة الخجل والذعر عند مؤرخى الفاتيكان فسرجيوس كان له عشيقة فى الخامسة عشر اسمها " ماروسيا " ابنة سيناتور رومانى، وعلى الرغم من أن مارسيا كانت متزوجه لكن هذا لم يمنعها من إقامة علاقة محرمة مع البابا نتج عنها ابن ، ذلك الابن الذى أصبح فى المستقبل بابا أيضاً.

ماروسيا استطاعت أن تلد باباوات وتُنَصب باباوات وتقتل باباوات، لم تدع أى شىء إلا وفعلته، على، فساعدت أربعة باباوات للوصول إلى كرسي الباباوية

وعملت أيضا على سقوطهم، وبابا واحد عملت على اعتقاله وقتله، وقلة من الباباوات التي تسيطر عليهم حكموا مدة بسيطة فقط وتم اختفاؤهم فى ظروف غامضة ، وسيطرت ماروسيا منذ عام 914 على الدولة الكنسية ، وفى ديسمبر عام 955 أصبح حفيدها الحبر الأعظم للكنيسة الكاثوليكية ، البابا " يوحنا الثانى عشر " وفى بداية عامه السادس عشر كانت له علاقات مع المومسات وكان يطعم خيوله الألفين بالتين والمكسرات ويسقيهم النبيذ، وبقرابين الحجاج كان يقامر، والمقامرون المطيعون يكافؤهم بكؤوس ذهبية من كنوز الكنيسة ، و"يوحنا الثانى عشر" يعتبر أسوأ شخص جلس على كرسي الباباوية ، ومن أجل هذا التجاوز تتمسك الكنيسة إلى اليوم بعزوبية الكاهن ، ولثمانية أعوام دام حكمه الإرهابى العنيف ، فى هذة الفترة أهان كل ما هومقدس لدى المسيحيين وأمر بقتل المعارضين وتقطيعهم وارتكب الخيانة الزوجية وزنا المحارم وكان يهوى الصيد ويعشق القمار ويرتكب الرذائل وفى النهاية كان ضحية لزوج غاضب للمرأة التي كان يزنى معها فى " لاجرندى " وقتله، وأيضا جدته مارسيا كانت نهايتها مأساوية فى سجن قلعة " انجلزبرج " فبعد خمسين عاما من السجن دون أن تسترد حريتها ليوم واحد، أرسل اليها أسقف لطرد الأرواح الشريرة منها، بعدما تخلصت من خطاياها وأعدمت، وكانت هذة هى نهاية حكم الإباحية.

وأغرب قصة للكنيسة الكاثوليكية بدأت عام 1292 بموت البابا " نيقولاس الرابع " ، وعقدت لجنة لاختيار البابا فى " بيرودجا " ، ثالث أطول فترة فى التاريخ لاختيار البابا ولم تستطع الإتفاق طوال عامين على بابا جديد ، وانقسمت هيئة الكرادلة إلى ثلاثة أحزاب وانتهت اللجنة بدون التوصل إلى اختيار بابا وفى أكتوبر تقابل الكرادلة معاً فى نفس المكان لانتخاب البابا ، ورأى الأحزاب المتضاربة لم يتغير ، شهور عديدة يحاولون الإتفاق بلا جدوى ، ومرة أخرى

ينصب مرشح للبابوية شباكه من أجل منافعه الشخصية؛ الكردينال " بندكت كايتانى "، وهو الذى زور خطاباً شديد اللهجة للزاهد " بطرس الميرونى " الذى طالب فيه المستوطن أن يتفق الكرادلة نهائيا ويوهبون للكنيسة اليتيمة بابا ، الكرادله اتفقوا فعلاً ، ولكن ليس لصالح كايتانى ، بل لصالح المستوطن ، وفى مايو عام 1294 تُوج بابا ، فأختار الزاهد السابق قلعة " كستنافو " فى نابولى كمقر له ، فهو لا يحب روما وفساد أخلاق الفاتيكان ولقب بالبابا " كؤليستين الخامس " وأراد أن يعيش حياة بسيطة كما سبق فأبعد نفسه عن وليمة أمراء الفاتيكان ،فهو يفضل أن يهب من ممتلكات الكنيسة للمحتاجين والفقراء الذين لا يزال يشعر بالإنتماء إليهم ، وإذا كان هناك بابا وعظ وأظهر تأمل جذرى للقيم الحقيقة للمسيحية فإنه هو ، ولكن هذه الفرصة أيضا ضاعت سدى ، فقد شعر الكرادلة بأن هذا ممكن أن يضعف الكنيسة والرجل الذى فى نابولى لابد من إبعاده ، وكانت لدى كايتانى خطة ، ففى الليل عندما كان ينام البابا ، يأتى أحدهم ويهمس عبر فتحة ضيقة فى جدار غرفته من خلال بوق صغير فى أذنه: ‘‘أن اترك الباباوبة إنه حمل ثقيل عليك’’ ، وبعد ليال طويلة من سماعه صوت الروح المقدس كما اعتقد قرر البابا أن يترك منصبه ، فأمر كايتانى بحبسه فى قلعة " فيمونه " حتى مات بعد عام ونصف من الجوع وحيدا.

والطريق لكيتانى أصبح خاليا وأصبح البابا ‘‘بونيفاتس الثامن’’ ، وأصدر لائحة خاتم الثور البابوى المشهورة فى العصور الوسطى " أنام سنكتام " وتقول ..
"إن هناك كنيسة واحده كاثوليكية حوارية مقدسة فقط بدونها لا يمكن الخلاص والغفران" ، البابا ‘‘بونيفاتس الثامن’’ جدد للمرة الأخيرة ، شمولية عولمة السلطة البابوية ، ولأن البابا ‘‘بونيفاتس’’ رجل أعمال بارع وليس رجل دين فحسب وفى قمة مجد منصبه أعلن فى القرن الثالث عشر الميلادى أول عام كنسي للغفران

وطلب اثنين مليون من الحجاج تخليصهم من ذنوبهم كلها وملأت تبرعاتهم خزينة البابا.

وعندما تقرر منظمة ما ممارسة السلطة والحصول على مال وتقف لجانب المال أو الحكم وتحيط به فلا بد أن نعلم أنه ليس لها رداء أبيض، هذا مستحيل؛ فوراء كل ثروة طائلة جريمة كبيرة ، والفساد الأخلاقى للكنيسة استمر من أجل بناء كاتدرائية بطرس التي كانت فى هذا الزمن أكبر بناء فى العالم واحتاج الفاتيكان إلى حقنة تمويل مالى عاجلة بأى وسيلة مهما كانت، وكان البارع فى ابتكار وجود مصادر مالية فى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى هو البابا " سكستوس الرابع " وهو اول بابا يمنح الرخص لبيوت الدعارة فى روما.

وبهذا المال بدأ عام 1475 بناء الكنيسة التي سميت على اسمه بكنيسة " سكستين " هذا العمل الضخم رسم بيد الفنان " مايكل أنجلو " ولكنه ابتلع مبالغ طائلة وهو واحد من أجمل اثار الغرب ومول باموال مئات الألاف من المؤمنين المسيحيين.

ثم ابتكر سكستوس الرابع صكوك الغفران للموتى ، فالأرواح التي تتعذب أرواحها فى الجحيم من أجل خطاياها يمكنها بكلمة منه إنقاذها ، ولكن بشرط أن يدفع نيابة عنهم مسبقا ومن الذى لا يعمل هذا من أجل البر، أفضل من بائع لصكوك الغفران.

وفى بداية القرن السادس عشر ، ظهر " يوهان تتسل " وعند ظهوره فى الأماكن العامة فى الأسواق الألمانية كان يتدفق عليه الشعب ، فهو يتكلم بحماس ويؤمن بما يقول وتندفع الكلمات منه حادة صادقة كما أنه يتمتع بكاريزما القادة

والملهمين ممن يقع فى هواهم وتحت تأثيرهم العامة ، فمن ذا الذى لم يقع فى الخطيئة ؟ وقانون الكنيسة فضفاض وغير واضح ، ومن المستحيل ألا يقع المرء فى الخطيئة ، والراهب الكاهن يعِدُ مستمعيه بغفران، حتى خطاياهم التي سوف يرتكبونها فى المستقبل.

نصف الإيراد خصص لبناء كاتدرائية بطرس، وراهب أوجستينى وأستاذ لاهوت من مدينة " فيتن برج " كان شاهداً على خطبة "تتسل" المثيرة ، إنه " مارتن لوثر " الرجل القادم من أقليم سكسونيا، الذى يود أن يثور على الكنيسة، فأعد 95 فقرة يعارض بها تعاليم الإيمان الكاثوليكى الممارسة ، بفضل الطباعة التي ظهرت حديثا ، استطاع لوثر أن ينسخ فقراته بكثرة ، حتى أصبح الحصول عليها يسيراً فى العلن للعامة.

تحدى لوثر أكبر وأقوى خصم يستطيع أن يتخيله الإنسان ، إنها الكنيسة ،بإمكانياتة معدومة ، ولكن فى 31 اكتوبر عام 1517 ، غيرت فقراته ال 95 الناقدة للبابا العالم ، وعلى أثر هذا انقسمت الكنيسة إلى كاثوليك وبروتستانت ، وبالرغم من هذة الثورة بقيت الكنيسة الكاثوليكية.

الناس الذين لا يستخدمون عقولهم كثيرون مثل الخراف ، ينتظرون باستمرار أن يقال لهم ماذا يفعلون ، هل هذه خطيئة ؟ هى ليست خطيئة ، وطبعا الذى لابد أن يلجأوا إليه هو البابا فى روما رئيس كل الباباوات الذين يطلقون عليه قداسة البابا ، هو الذى لابد أن يقول لهم هذا ما يجب أن تفعلوه وهذا ما لا يجب أن تفعلوه.

الحرية التي كانت أيام يسوع هى أنه كان يدعو الناس فيقتنعوا ويمكنهم التدبر والاختيار وليس مثل اليوم، الممتدة شبكتة المحكمة الأوامر والخطايا وتعليمات الغفران وتعليمات التوبة حتى الأشياء التافهة ، والقائمين على هذا الدين أصبحوا محدودى الأفق، والكنيسة الكاثوليكية خلال الألفين عام تسببت فى عدم مصداقية مذهبها للكثيرين بالرغم من الباباوات المتعطشين للسلطة والذين دبروا المكائد فى الظلام وأساقفة العلمانية واللاهوتيين المتطرفين.

اليهودية

تلك الكلمة التى أطلقها رجال الدين اليهود على ما يسمى بالديانة اليهودية

من أين جاءت تلك الكلمة ؟

كيف نشأت ؟

هل هى مذكورة فى العهد القديم وهو كتاب اليهود المقدس والذى توجد به خمسة كتب أو خمسة آسفار ، سفر التكوين والخروج واللاويين والعدد والتثنية ، وهذه الأسفار يفترض أنها تشكل التوراة ، والتوراة تعنى القانون وهى أسس تعاليم موسى.

هل يمكن أن نجد كلمة اليهودية فى التوراة ؟ لا ، لا توجد

هل توجد تلك الكلمة فى التلمود ؟ لا ، لا توجد أيضا

هل توجد فى المِثنى ؟ لا توجد كذلك

اذن من أين أتت ؟

من أين جاء رجال الدين اليهود بتلك الكلمة ؟

هل سمع موسى بتلك الكلمة ؟ لا ، لم يسمع بها ولم يقلها أو يذكرها.

لأنه لم يسمع بتلك الكلمة فى حياته.

اليهودية كلمة تأتى من الاسم " جودا " أو " يهوذا " وهو أحد أبناء " إسرائيل " أو النبى " يعقوب "، وكان الناس فى ذلك الوقت يقولون إن الدين الذى يتبعه أبناء " يهوذا " فى يهوديا " أى " فلسطين " فى ذلك الوقت هو اليهودية ، ومن هنا جاءت كلمة " اليهودية " كلمة اليهودية ليست موجودة فى التوراة ولا فى التلمود ولا فى التثنية ، لقد اخترعوا هذه التسمية وتبنوها ، وحتى النبى موسي نفسه لم يسمع بتلك الكلمة من قبل.

هنا توقف صاحبى عن السرد ، وتوقفت أنا عن الإنصات وتملكتنى الدهشة والحيرة ، من إين يأتى بمصادره ؟ وهل رآها فعلا ؟ وهل حدثت بتلك الكيفية ؟ وهل هو صادق فعلا؟ هو دائما يتحدث بثبات وجدية ، ولا يخالفه المنطق ، ويعطينى فرصه للرد ، أهدرها أنا بندرة علمى وقلة حيلتى ونضوب الرد من جعبتى ، فيرحل فى هدوء وصمت كما جاء ، ليتركنى وسط صمتى وحيرتى ومراسم زفاف صديقى المسيحى الوحيد ، وصورة المسيح المعلقة فى صدر الكنيسة فى مواجهتى تماما ، وأنا أتسائل فى صمت، ماذا حدث حقا ، وأين الحقيقة فى ما جرى وما يجرى ؟ وأتعجب من بشرته البيضاء وهو النجار ابن بيت لحم مدينة الشمس الساطعة والبشرة السمراء !

جان روجيه

مهندس فرنسي، فى العقد الرابع من عمره، يعمل ويعيش بمصر ، تعرفت عليه ، دعانى لمنزله ، روجيه رجل مهذب هادىء وقور نموذج للرجل الكلاسيكى بهدوئه وثقافته وأناقته ، رحب بقدومى ، وأفرط فى ضيافتى ، وسألنى ماذا أفضل أن أشرب ، وذيل سؤاله بأننى يمكننى أن اطلب أى مشروب أحبه ، من الشاى حتى الشامبانيا ، طلبت شايا ، استأذننى لعمله ، فهو لا يستأجر خادماً ، ولا يحب استخدام البشر ، يفعل كل شىء بنفسه ، يتبنى طفلا برازيليا يتيما ، يعيش معه ، يشرف على تعليمه والتحصيل له وتخصيص وقت للعب والترفيه معه، ويحرص كل الحرص على أن تتم كل تلك الأشياء فى حياة الصبى ، وفى يومه ، لابد أن يذهب إلى المدرسة ، لابد أن يحصل دروسه، لابد أن يساعده فى ادائها ، لابد أن يتناول عشاءه ، ويشاهد التلفاز قليلا ، ثم يأوى إلى فراشه فى التاسعة تماما ، نظام مقدس لابد من الحفاظ عليه ، والإلتزام به.

عندما حضرت ، صاح عليه ، ودعاه للقائى ، مد الصبى يده ليرحب بى ، تناولت يده الصغيرة ، وأحسست ناحيته بحنان وعاطفة جارفة ، فطلبت منه أن أحتضنه؛ انا اعرف أن الإجانب لا يحبون أن يقبل أو يحتضن الغرباء أطفالهم ، نظر لوالده بالتبنى نظرة متسائلة ، فأومأ الأب الفرنسي بالتبنى ، أن نعم يمكنك ، التأم فى حضنى وسكن ، احتويته وكأنه جزءاً منى ، كانت رائحته طيبة ، ولم أرغب فى إطلاق سراحه ، ولكننى فعلت ، كان اسمه جيريمى.

ذهب جان ليعد لى الشاى ، ثم عاد ، عندما انطلق الأذان فى أحد تلك الأيام الجميلة التي كنت أصلى فيها ، التي كنت أحب أن أصلى بها ، وأستمتع بالصلاة فيها ، أنا لا أصلى ، ولا أحب أن اصلى ، ولا أجد بى رغبة للصلاة فى معظم الوقت ، ولا أجد تلك الراحة أو المتعة أوالمبرر فى كثير من إلاحيان ، ولا أستطيع الصلاة وأنا مدرك أن صلاتى سوف تلعننى إن اخطات أو استخففت بها ، والأهم والأخطر أننى لا يمكننى أن اكذب على الله ، فأركع وأسجد وأردد ، بلا رغبة أو إيمان أو شغف ، دفء الإيمان الحميم الصلب ، يتخلى عنى كثيرا.

كانت تنتابنى فى أحايين كثيرة رغبة، فى أن يتجلى ملاكى الأيمن وينهال على باللكمات والصفعات والركلات ، وأن يعاقبنى مباشرة ، حتى أتخلى عن جرأتى ووقاحتى وتركى للصلاة ، كنت أتمنى أن يكون عقابى لترك الصلاة وقتى ولحظى ومباشر، حتى أتخفف من عبء الأحساس بالذنب والجرأة والوقاحة.

سألت روجيه إن كان يمكننى الصلاة ؟ فأنتفض غير ممانع ، وأحضر لى، سجادة صغيرة للصلاة، كانت موجودة بالشقة ، فهو يعيش بشقة مؤثثة تطل على نيل المنيل ، كدت أن أساله عن إتجاه القبلة، ثم ابتسمت وصمت، عندما رحل مختفيا عن صالة الشقة حتى يتيح لى الوقت والسكينة كى أؤدى طقسى الدينى ، يكاد يعود للخلف بظهره ، حتى لا يولينى ظهره ، إحتراماً لرغبتى فى الصلاة ، وربما احتراما للصلاة نفسها ، صليت وأنا افكر به ، وأتساءل عن ديانته ؟ أنا لم أسأله عن ديانته، أنا لا اسأل أحدا عن دينه، ولا يهمنى أن أعرف، إلا أنه ربما كان الفضول حينها.

كان روجيه لا دينيا ، أى لا يتقيد بدين ، ولا يجد داعى للتقيد بدين ، ولا يشغله أو يعنيه إن تواجد إله لهذا الكون أو لم يتواجد ، ويشفق على المتدينين ، من التعصب والتشدد والكراهية التي تنشأ بينهم باسم الدين ، فكرة الدين كانت جيده فى وقت ما ، وإلى حد ما، عندما كانت الجماعات البشرية فى بدايتها ، عندما كانوا يفتقرون إلى قوة أو عزاء ما، أو يحتاجونهما بشكل أو بآخر، اما بعد الحضارة والتقدم والطب والعلم والهندسة والتخطيط والأدب والفن والموسيقى، والكثافة المطردة للبشر، وظهور الحدود، والتعصب للجنسية والثقافة وظهور المدن العملاقة، وتشابك العلاقات والحاجات وتعقدها، وضرورة البحث عن عمل مناسب ومأوى مناسب، لم يعد للدين ضرورة ، لم يعد له ذلك الحضور وتلك الحاجه ، أصبح قديما قدم ظهوره، مجرد فلسفة قديمة وجامدة تقيد وتحبط وتشعر المرء بالذنب على الدوام ، وأنه بشكل أو بآخر مخطىء أو مذنب أو عاصى أو يرتكب فاحشة ما وأنه دائما يغضب الرب أو لا يوفيه حقه من الإهتمام والعبادة، وأن الإنسان يحمل عبء خطيئة لم يرتكبها وتثقل كاهله وتجبره على الخلاص منها أو التكفير عنها، لا يقدم الدين حلولا، فقط يتمنى للبشر السلام والمساواة ، اللتان لا تتحققان أبداً، لا الدين استطاع أن يحققها، ولا هما فى ذاتهما قابلتان للتحقق ، فالإنسان جبل على التمرد والشر والطمع ، فالخطيئة الأولى تمت على يد آدم أول أنسان خلق، وفى حضرة الرب، وفى الجنة، ورغم حضرة الرب والنعيم والتحذير، عصى آدم وخالف وتجاهل، وهو أقرب ما يكون إلى مصدر الدين وصانعه ، وهو نفسه من صنع الصانع، وأول نسخة بشرية تجريبية ، ضربت بنجاحها عرض الحائط ، وسقطت إلى الأرض ، ليكمل ولديه مسيرة الجينات الشريرة الطامعه ، فيقتل الأخ أخاه، القتل، أول فعل بشرى إرادى يرتكبه بشر، وفى حق أقرب المقربين إليه ، أخيه، ومن اجل من؛ من أجل أخته، رغم أنه كان يحظى بأخت أخرى كانت له، إلا أن الطمع والشر المتأصلين فى الجبلة البشرية قاداه ببساطة أن يفعل ما فعل، الأب والابن مذنبان ، والابنة والأخت الضحية ، ونزل الدين ليروض ذلك الشر أو تلك الجبلة ،

ولم يفلح فى ترويضها ، ظلت الرغبة فى التمرد والشروالطمع موجودة ، وأصحاب أعراق تمحو أعراق ، من أجل قطعة أرض ، أو بئر ماء، أو من أجل الدين نفسه ، الأخ البشرى يحارب أخاه البشرى من أجل فرض الدين أو الخلاف فى الدين أو الإختلاف فى الدين، أى أن الدين ذاته أصبح مصدراً للتعاسة، تماما كما كان الإنسان مصدراً للتعاسة منذ وطىء إلى الوجود، والهدف من الخلق مجهول، إلا لو كانت عبادة الناس قائمة على الترغيب والترهيب أى على الخوف من النار، أو الطمع فى الجنة ، وكلاهما سبب لا يتفق وجلال الخالق، الصانع الواهب، فلا الخوف ولا الطمع يصلحان سببا للقناعة أو التقيد بدين أو التظاهر بالقناعة والرضا أو الإستسلام للأمر الواقع، وهو ما لا يحدث فى الدول أو التكتلات البشرية الصناعية الغنية، والتى لا تحتاج لجنّة لتفكر بها، فهى قد صنعت جنتها على الأرض وتستمتع بها، ولا تشغل بالها بالنار والخوف منها، هم يشغلون أنفسهم بالحياة، الموجودة المحسوسة المرئية الواقعية الحقيقية، التي يقفون عليها ويعيشون فيها، التي تتوالى أيامها كقطارسريع، لا ينتظر أحدا، ولا يشفق سائقة على أحد، فعلى من يرغب أن يحتفظ بحياته ، أن يعمل، ويعمل بجد وكد، ويتعلم، يتعلم جيدا وبشكل حديث ومستدام فالعلم فقط لا يكفى، يجب أن يكون حديثا ومتطورا، بدون ذلك سوف يرتد الإنسان إلى الكهوف ويستدفىء بالنار، وهو ما يحدث بالفعل لكثير من الأمم، فيعيش أهلها حياة أشبة بحياة أهل الكهف، وأن يتعلم ، يتعلم جيدا من أخطاء الماضى وأخطاء الحاضر، وسريعا، فلن تتوقف الحياة من أجل الأغبياء أو بطيئى التعلم أو الكسالى ، سوف تسحقهم وتنساهم، دون لحظة تفكير أو ندم واحدة.

قطع روجيه كلامه عندما وجدنى أنصت فقط ، أو ربما توقف عندما شعر أن لكلامه تأثير مزعج أو سىء عليّ، فسألنى:

- هل ترغب بالإستماع إلى بعض الموسيقى؟
- نعم.

- أنا أحب أن أستمع لكارمينا بورانا " Carmina Burana " وعندما نطق الاسم تعجبت فلم أكن أعرف ماهى وعندما دارت الإسطوانة فى مشغل الإسطوانات العتيق الإنيق الذى يملكه، تعرفت الموسيقى التي صدرت ولكننى لم أكن أعرف أنها تسمى بذلك الإسم وأخبرته بذلك فقال:
- إن " كارمينا " تعنى أشعار باللغة اللاتينية و " بورانا " كلمة ألمانية قديمة تعنى دنيوية أى أن كارمينا بورانا تعنى أغانٍ دنيوية وترجع نصوص هذ الإغنيات إلى العصور الوسطى حيث صيغت باللاتينية ثم نقلت إلى الألمانية عندما اكتشفت في دير بندكتيني في مدينة بورين في إقليم بافاريا و هي قطعة موسيقية ذات طابع غنائي و استيحاء ديني و دنيوي حيث تؤدى بصوت أو أصوات مصحوبة بالأوركسترا ومؤلفها هو " كارل أورف " وهو مؤلف ألماني (1895/1982) اهتم بالموسيقى القديمة التي حثته على إعادة أعمال إلايطالي " كلاوديو مونتفيردي " (1567/1634) و استخدم في أعماله لغات قديمة كما فعل في كارمينا بورانا التي حظيت بشهرة خاصة، و كارمينا بورانا أنشودة أوبرا موسيقية خلابة يصاحبها نص يحكى عن الخمر والنساء والحب والسحر ويعرف ذلك النص باسم " آلهة القدر " ويقال أنه تم تأليفه من قبل مجموعة من الشباب المثقف والذى خرج عن الكنيسة وتعاليمها واستوطن الغابات وعاش الحياة بحرية مطلقة ويتطرف البعض فى القول إن الشيطان ساعد أو أوحى إلى اولئك الشباب بكتابة كل أو أجزاء من تلك الأنشودة وإن من يستمع إلى تلك الأوبرا يقع تحت تأثير غامض.

وهو ما يحدث لى بالفعل وأنا أستمع إلى تلك الأوبرا تحديدا، دون أن أعرف ذلك التاريخ عنها فقط أحس أنها ليست بشرية ولها تأثير غريب علىّ.

وكانت وكلمات المقطع إلاول منها تقول:

آه يا آلهة القدر

متغيرة أنتِ كوجه القمر

مُضيء أحياناً ومظلم أحيانا

دورة أزلية من التألق و الشحوب

الحياة البغيضة تجرح أولاً

ثم تقدم البلسم

حسبما يحلو لها

الفقر والسلطان

تذيبهما كما تفعل بالجليد

يا إلهة القدر المتوحشة الجوفاء

أيتها العجلة الدوارة

لكم أنت خبيثة

و ما السعادة معك إلا وهم

سرعان ما يتلاشى

تحجبه الظلال

ها أنت تقصينني الآن

حسب قواعد اللعبة

فأجرد ظهري عارياً

تحت سياط قسوتك

تعاديني الحظوظ

في الصحة و الفضيلة

تستعبدني مصائبك

فأسارع دون تأخير

إلى اللهاث وراء سنينى

وما دام القدر

ينزل المصائب على الرجل القوي

فابكوا معي جميعاً .

كانت المرة الأولى التى أستمع فيها لتلك البورانا مصاحبة بالترجمة وكنت قد اعتدت على تأثيرها علىّ بدون أن أعرف معانى الكلمات المصاحبة لها، وهو تأثير جد غريب يجعلنى أتجمد أو يتوقف الزمن عندها ويأخذنى إلى عالم سفلى أكاد أرى فيه جحيم دانتى فى الكوميديا الإلهية أوأرى الكوميديا إلالهية كلها مختذلة وموجزة وهو ما تكثف وتجسد وتعاظم أكثر حين أخذت عينى للمرة الأولى تطالع وتتابع الترجمة المصاحبة للأنشودة الشيطانية على حد زعم البعض، وعلى حد يقينى كما كنت أشعر حينها، بيتهوفن وموتسارت عباقرة عظام ولم تخرج من قريحتهم تلك الأوبرات الجحيمية التى تسلب الوعى قد تخلب أوبراتهم الوعى ولكنها لا تسلبه، إلا أن تلك الكارمينا بورانا كان لها مس السحر أو تأثير الطقوس الغامضة، بموسيقاها وكلماتها المتحدية للآلهة والقدر والمشفقة على الرجل القوى الذى يتحمل مصائبها مما يجعل السامع والقارىء يتعاطف مع الرجل القوى المسكين ويحنق على تلك الآلهة القاسية وأقدارها العابثة غير المسئولة.

شكرت روجيه وأستأذنته فى الرحيل ، وفى شقة إسراء بالزمالك اتخذت موقعى المفضل على الكرسى الوثير الهزاز المواجهه لنافذة الشرفة المطلة على النيل وأدرت مؤشر المذياع على البرنامج الموسيقى بوحى من تأثير البورانا وأغمضت عينى لأنتفض من مكانى بحدة، فقد صدرت عن المذياع أنشودة البورانا فى الجزء الصارخ منها مددت يدى لأغلق المذياع، لأفاجأ بصاحبى يقف بجانب نافذة الشرفة يضىء نور الشمس نصفه ويبتلع

ظلام الغرفة نصفه الآخر، وكنت أعتقد أنه يظهرليلا أو فى الأماكن المغلقة فقط، لا أدرى لماذا! ودون أن ينظر إلى، قال بهدوئه وثقته المعتادتين:

- أنا لم أشارك فى تأليف أى من كلمات تلك البورانا.

أقطب حاجبى واستنكر وأرد عليه:

- لا يمكن لبشر أن يكتب ما هو موجود.

يرد علىّ بهدوئه المعتاد:

- أنت مخطىء. لو أنك قرأت قليلا لوجدت نيتشة وسارتر وماركس وأتاتورك وغيرهم، قد كتبوا ما هو أجرأ وأقبح ولا يليق بالذات الإلهية أو ماهية القدر.

أرد بحيرة وتعجب:

- ولكنك الشيطان يا رجل، على حد زعمك، ويجب أن تكون من كتب أو أوحى بكتابة تلك الكلمات، ذلك أنت وذلك ما يجب أن تكونه.

يرد بنفس الثبات والهدوء:

- أنا تأدبت ولا زلت أتادب مع خالقى ، لم ولا ولن أتحداه، ولا يمكننى ، أخبرتك من قبل إننى فى مهمة محددة ، أنا صورة من صور المشيئة الإلهية ، وأنتم يا من تتمتعون بإرادة حرة مطلقة تستعملونها بكل تلك البساطة والجرأة فى التطاول بكل جهل وإصرار، ولأنكم ضعفاء وجبناء تلقون بالتبعة علىّ.

أهز رأسى وأرفض التصديق وأرد عليه:

- لا يمكن؛ أنا لا أصدقك، لا يمكن أن تكون ذلك الملاك الطيب البرىء الذى لا يقترف شيئا ويبرىء نفسه من كل التهم التى من المفروض أنها فى الأصل من صنعه.

تقدم نحوى ببطء، فتخلى عنه النور، وغرق فى الظلمة، واصبح كشبح، وضاقت عيناه وخرج صوته كفحيح، ورأيت فى عينيه وأحسست فى صوته برهبة لا توصف وهو يضيف وعينه فى عينى فى مرة نادرة:

- نفس العناد والجهل والرفض ، قلت لك إننى فى مهمة محددة، وعندما رغبت فى الشروع فيها، طلبت من الله وتأدبت وأنا أطلب وأقسمت على الله عز وجل وعلا بعزته وجلاله أن يدعنى أغوينكم كلكم وهو ما سمح لى الله تعالى به، وهو ما أفعله أنا أغرى إرادتكم المستقلة وحريتكم المطلقة التى تتشدقون وتتباهون بها وتدافعون عنها، أغريها أن تجهل وأن تغلو، لا اجبر أحداً ولا أملى علية ما يفعل، أنا أقترح، وأرحل، والباقى يفعله أكثركم بوحى من داخله، بوحى من إرادته الحرة ورغبتة المستقلة وكل تلك المعانى التى ترددونها، قليل منكم فقط من يقرأ ويفهم ويدرك، وهؤلاء لا سلطان لاغرائى عليهم، اولئك هم من يعقلون ويعتبرون، اولئك هم أولى الألباب، أين أنا من النبى محمد وصحبه، أين أنا من السيد المسيح وحوارييه، أين أنا من المهاتما غاندى وإبراهام لنكولن ومالكولم إكس ومارتن لوثر كينج ، أى إيحاء وإيعاز يمكنك أن تتخيل عندما تتذكر هتلر وستالين وتشاوشيسكو، ماذا سيفيدنى قتل وحرق وتعذيب وتشريد الملايين، أنا لم أحرص على زعامة ولم أسعى لها، أنا فقط أرى أن أكثركم لا يستحق ولا يستوعب هبة الحياة ويصر على تفتيتها فى غي وغباء وشر، وأنا فقط أرغب أن اؤيد رايي.

اهرب من عينيه واغلق عينى، واستمع إليه فقط، وعندما يتوقف صوته، افتح عينى فى حذر، لا ادرى لماذا؟ ولأنه يقرأ صمتى، فلا اجده.

اكيرا ماكوتو

أستاذ الأدب الياباني بقسم اللغة اليابانية بكلية الآداب جامعة القاهرة، رجل خلوق ومحترم ومقدر من كل طلبته، رقيق وودود كأفضل ما يكون الرجل، خليق بأن يكون رجل علم، أو رجل دين، إلا انه إنحاز للعلم.

كنت قد قابلته أثناء دراستى للغة اليابانية بالجامعة، وكنت احد افضل تلامذته، واحد أكثر تلامذته أسئلة وجدلا، حتى كان اليوم الأخير الذى سوف نراه فيه، بعد نهاية فصلنا الدراسى، فالقيت ما عندى، وكان هو حريصا دائما على عدم الخوض فيه، إلا أنه ابتسم وأخيرا تكلم:

— سوف ارد على أسألتك دفعة واحدة، بما أنها آخر لقاءاتنا، وحتى يهدأ ذلك الطالب السئول اللحوح داخلك.

الياباني لا يتقبل فكرة الغيب المطلق والتسليم المطلق، ولا يقبل فكرة أن يقايض حياته بحياة أخرى لاحقة، فلا أحد رأى تلك الحياة الأخرى اللاحقة، ولا أحد ذهب وعاد وأخبر عنها، وحتى لو تأكد من الآخرة أو الحياة الأخرى، فهو لا يرغب بمقايضة حياته بحياة اخرى، فإما أن يهبه الإله الحياة ويتركها له، أو لم ليكن ليعطيها له على الإطلاق.

والياباني إنساناً يأخذ أمور الدين ببساطة؛ إذ يزور معبد الشنتو ، " والشنتو كلمة تعنى الطريق إلى الآلهة " وهى تهتم بالحياة أكثر من الموت؛ ولذلك تتعدد الإحتفالات التي يزور فيها اليابانيون المعابد بحيث تتدعم، الصلة بين الفرد والكامي ، (والكامى هى قوى عظمى متعددة وليست إلهًا واحدًا)، الكامي (神)، هي كل الأشياء والموجودات التي لا تنتمي إلى مجال التأثير المباشر

للإنسان، أو كل ما هو غريب، عجيب وغامض، ولا توجد للكامي أشكال محددة، كما أنها يمكن أن تتمثل في كل قوى الطبيعة (صخرة، شجرة أو حيوان) ومن معتقداته إيضا اعتباره أن الحياة والموت تطور للطبيعة ، وليس هناك تصادم بين الخير والشر والإيمان بوجود "كامي"

وعلى عكس الديانات التوحيدية الأخرى، لا يوجد في الشنتوية تعريف للمطلق، لا يمكن لأحد أن يدعي الصواب المطلق ولا الخطأ المطلق ، فالناس في طبيعتهم غير معصومين من الخطأ، وتعتبر الشنتوية من هذه الناحية ديانة متفائلة ، حيث تفترض أن الإنسان كائن طيب في الأساس، وأن الشر يقع نتيجة تدخل الأرواح الشريرة ، وتنحصر أغلب العبادات الشنتوية في إبعاد هذه الأرواح الشريرة عن طريق تنقية النفس والصلوات وتقديم القرابين للـ "كـــــــــــــــــــامي".

وليس لعقيدة التوحيد مكان في الشنتوية ، فبسبب تعدد المظاهر التي يمكن أن تتجلى فيها القوى الإلهية، ربط اليابانيون بين كل ظاهرة وآلهة معينة، وأعداد الكامي لا يمكن حصرها، ويمكن لأي شخص أن يتصل بآلهته الخاصة ، ولا يوجد في الشنتوية حياة بعد الموت، وجسد الشخص الميت يعتبر شيئا مدنسا، فتنطلق روح الميت، بعد أن تتحرر من جسدها المادي فتندمج مع قوى الطبيعة.

وتتلازم العقيدة الشنتوية مع موقف أخلاقي حازم تجاه تقديس الطقوس، والطهارة الطقسية التى تتكون بتمكن الإنسان من إقامة علاقة مع الـ «كامي».

والشنتو عقيدة بسيطة ولا تطالب أتباعها بطقوس خاصة ومعقدة ، ويمكنها أن تتعايش مع المعتقدات الأخرى ، ويتمسك اليابانيون بهذه الطقوس ويعتبرونها جزءًا من كيانهم القومي.

عبادة الشيطان

في نهاية القرن التاسع عشر، بعد عدة سنوات من إفتتاح قناة السويس، رست على شاطئ القناة سفينة كبيرة قادمة من الهند، وكان على متن هذه السفينة مليونير بلجيكي يدعى "إدوارد إمبان".

كان "إدوارد إمبان" يحمل لقب بارون وقد منحه له ملك فرنسا تقديرا لمجهوداته في إنشاء مترو باريس حيث كان "إمبان" مهندسا متميزا، وكما كان "إدوارد إمبان" مهندسا نابها، كان أيضا صاحب عقلية اقتصادية فذة، حيث عاد إلى بلاده وأقام عدة مشروعات جلبت له الكثير من الأموال، وكان على رأس تلك المشروعات إنشاؤه بنك بروكسل في بلجيكا ولم تكن هواية "إدوارد إمبان" الوحيدة هي جمع المال، فقد كان يعشق السفر والترحال باستمرار، ولذلك انطلق بأمواله التي لا تحصى إلى معظم بلدان العالم، طار إلى المكسيك ومنها إلى البرازيل، ومن أمريكا الجنوبية إلى إفريقيا حيث أقام الكثير من المشروعات في الكونغو وحقق ثروة طائلة، ومن قلب القارة السمراء اتجه شرقا إلى بلاد السحر والجمال الهند، عاش "إدوارد إمبان" سنوات طويلة في الهند وعشق الأساطير القديمة حتي كان قراره بالبحث عن مكان تاريخي أقدم، فاختار مصر.

وصل البارون "إمبان" إلى القاهرة، ولم تمض أيام حتى تعلق قلب المليونير البلجيكي بها .. وعشق الرجل مصر لدرجة الجنون واتخذ قرارا مصيريا بالبقاء في مصر حتى وفاته.. وكتب في وصيته أن يدفن في تراب مصر حتى ولو وافته المنية خارجها، وكان طبيعيا على من اتخذ مثل هذا القرار أن يبحث له عن مقر إقامة دائم في المكان الذى تعلق

به.. وكان أغرب ما في الأمر هو اختيار البارون "إمبان" لمكان في الصحراء بالقرب من القاهرة، ووقع اختيار البارون على هذا المكان باعتباره متاخماً للقاهرة وقريبا من السويس ولتمتع المكان بصفاء الجو ونقاء الهواء وبالتأكيد لم يكن أحد في هذا الزمن يرى ما يراه الإقتصادي البلجيكي ولا يعرف ما يدور داخل رأسه عن المستقبل ، وبمجرد اختيار المليونير البلجيكي للمكان الذي سيعيش فيه -وهو الطريق الصحراوي شرق القاهرة - عكف البارون "إمبان" على دراسة الطراز المعماري الذي سيشيد به قصره في القاهرة ولأن البارون كان مهتما أيضا بفن العمارة فقد اتخذ قراراً بأن يقيم قصراً لا مثيل له في الدنيا كلها، وظل اختيار الطراز المعماري مشكلة تؤرق البارون حتى عثر على ضالته المنشودة داخل أحد المعارض الفنية في العاصمة الفرنسية، ففي هذا المعرض وقعت عيناه على تصميم لقصر غاية في الروعة أبدعه فنان فرنسي اسمه " ألكسندر مارسيل " كان التصميم شديد الجاذبية وكان خليطاً رائعاً بين فن العمارة الأوروبي وفن العمارة الهندي وتذكر البارون أنه في أثناء إقامته بالهند ألم به مرض شديد كاد يودي بحياته فاهتم به الهنود واعتنوا بصحته وأنقذوه من موت محقق.

وتذكر البارون "إمبان" القرار الذي اتخذه أيامها بعد شفائه بأن يبني أول قصوره الجديدة على الطراز الهندي عرفانا منه بالجميل لأهل هذا البلد، ولم يتردد البارون "إدوارد إمبان " للحظة، فاشترى التصميم من "مارسيل" وعاد به إلى القاهرة ، وسلم التصميم لعدد من المهندسين الإيطاليين والبلجيكيين ليشرعوا في بناء القصر على الربوة العالية التي حددها لهم البارون في صحراء القاهرة، وبعد خمس سنوات ، خرجت التحفة المعمارية من باطن الصحراء.

قصر فخم جملت شرفاته بتماثيل مرمرية على شكل أفيال، وبه برج يدور على قاعدة متحركة دورة كاملة كل ساعة ليتيح للجالس به مشاهدة ما حوله في جميع الإتجاهات.

والقصر مكون من طابقين وملحق صغير بالقرب منه تعلوه قبة كبيرة، وعلى جدران القصر توجد تماثيل مرمرية رائعة لراقصات من الهند وأفيال لرفع النوافذ المرصعة بقطع صغيرة من الزجاج البلجيكي وفرسان يحملون السيوف وحيوانات أسطورية متكئة على جدران القصر. واللافت للنظر أنه تم إنشاء القصر بحيث لا تغيب عنه الشمس.

كان البارون "إمبان" قد ولد بعرج ظاهر في قدمه، بالإضافة إلى مرضه بالصرع، وكثيرا ما كانت تنتابه نوبات صرع، فيهوى في حديقة القصره، ويقبل عليه الصباح وكلبه يقف بجانبه إلى أن يفيق ، فالبارون لفرط صرامته لم يكن يستطيع أحد من الخدم الإقتراب منه إلا بأمره ، حتى لو كان ملقى على الارض فاقد الوعي.

وربما كان السبب في الغموض الذي يحيط بالقصر أنه كانت توجد بالقصر غرفة حرّم " البارون إمبان" دخولها حتى على ابنته وأخته البارونة "هيلانة" وهي الغرفة الوردية ببدروم القصر، وهذه الغرفة تفتح أبوابها على مدخل السرداب الطويل الممتد لكنيسة " البازيليك " والتي دفن فيها البارون بعد موته.

ولنتخيل غموض البارون وغموض كل ما يحيطه، ما علينا سوى أن نحسب المسافة بين قصر البارون وكنيسة البازيليك الواقعة في شارع الأهرام بمنطقة روكسي بحي مصر الجديدة، ومن الأسباب التي أدت إلى زيادة الغموض هو مقتل أخت "البارون" البارونة "هيلانة" عند سقوطها من شرفة غرفتها الداخلية وقتما كان يدور البارون ببرج القصر ناحية الجنوب ، وتوقفت القاعدة عن الدوران في تلك اللحظة عندما هب البارون لاستطلاع صرخات أخته "وكانت مريام" ابنة البارون قد أصيبت بشلل الأطفال بعد ولادتها بفترة، ونظراً لحزم أبيها الشديد وشراسته أحيانا في معاملتها ومعاملة عمتها، أصيبت "مريام" بحالة نفسية سيئة، فكانت تجلس "عندما تنتابها النوبات" لساعات هي الأخرى ببعض

غرف السرداب الأسفل بالقصر، وعندما كانت تعود "مريام" لغرفتها وهي متحسنة المزاج، تقول إنها تكلمت مع صديق لها يريحها كثيراً.

وهي القصة التي نسجت فيما بعد أسطورة "عبدة الشيطان" هذه الجماعة التي تدعي أن لهم طريقتهم التى تمكنهم من الحصول على القوة الشيطانية كما أن لهم كتابهم الديني المسمى " الإنجيل الشيطانى " من تأليف اليهودي " انتون لافي " مؤسس " كنيسة الشيطان " عام 1966 في سان فرانسيسكو وهذه المجموعة تتكون من طبقات فمنهم الأمير وهي مسميات لديهم وكذلك الشر الأعظم، وتبدأ لياليهم بالرقص على موسيقى البلاك ميتال الصاخبه والبدء بتعاطي المخدرات ومن ثم الجنس الجماعي فيختلط كل شي لديهم فيمارسون الجنس والمثلية و ويقومون بعدها بذبح ماعز أسود ويقومون بشرب دمه وتلطيخ بشرتهم واجسادهم به، وتميز هذه الجماعه نفسها بملابس غريبة، حيث يرتدي معظمهم ملابس عازفي موسيقى البلاك ميتال والمعروفة بلونها الأسود والمصنوعة من الجلد ويرتدون سلاسل إما على شكل جمجمه أو على شكل نجمة خماسية ويرسمون وشم الصليب المعقوف على صدورهم واذرعهم ، وكتاب الشيطان يوصيهم بأن يعاملوا الناس بطريقة فيها الكثير من الغرابة؛ فيطلب منهم أن يسيئوا معاملة جارهم وأن يردوا الإساءة أضعافاً ويمنع عليهم الحب فالحب يعتبرونه ضعفاً وكذلك يمنع لديهم الزواج

ومن تقاليدهم القداس الأسود حيث يتعرى فيه كاهنهم باعتبار أنه الشيطان وتأتي إليه فتاة وتبدأ في ملامسة أعضائة وتنتهي الملامسة بالرقص ثم الجنس، ومن تقليعاتهم الغريبة أيضا نبش القبور، وفي مصر يذهبون في النهار إلى مقابر الكومنولث في حى مصر الجديدة ويبحثون عن جثة حديثة الوفاة ويقومون بإخراجها والرقص عليها ثم يذبحون القطط ويشربون دماءها وتلطيخ أجسامهم بها، ثم يذهبون إلى الصحراء ويعيشون بها لأيام دون أن يضيء أحدهم أي مصدر للإضاءة، ويكون بينهم تحية وهي رفع أصبعي الكف

اليمنى السبابة والخنصر وثنى الأصبعين البنصر والوسطى داخل كف اليد وهي علامة الشيطان.

والشيطانية أوعبادة الشيطان ليست "إختراع مسيحي" أو "إسلامي"أو" يهودي" بل هى سابقة لهم ولجميع الديانات الأخرى، كما أنها ليست ردة فعل لها، الشيطانية ليست عن الموت والبعث، بل عن الحياة وقوة الحياة والرغبة فى الحياة ودعم قوة البشر على الأرض وتأييد الفصل بين الدين والدولة والدين والحياة، والمنتمين للديانة الشيطانية (الشيطانيون) لا يضغطون علي الأفراد الأخرين بالقوة لينتموا لها، وهي ديانة تعشق الحياة. والشيطانيون أحرار ليعيشوا حياتهم كما يريدون، والشيطانية الروحية لا تضع حدودا علي تطوير قُوى العقل المعروفة باسم "السحر" أو "الروحانيات" أو "العرافة" وهى تدعو إلي الإنفرادية والحرية والإستقلالية.

فى ذلك القصر ، قصر البارون إمبان.

كانت لى زيارة بالصدفة دون حتى علمى بها، فشريف صديقى يعمل مشغل اسطوانات ويتم الإستعانة به لتشغيل أجهزة الصوت وإختيارالأغانى فى الحفلات الخاصة بشكل منظم ومبهر، وهو من دعانى لحضور حفل خاص فى مكان خاص أعطانى الميعاد والعنوان ولم أكتشف أن المكان هو قصر البارون إلا عندما ذهبت فى منتصف الليل تماما ليلة رأس السنة، حتى ذلك الوقت لم أكن أدرك أن شريف شيطانى أو من عبدة الشيطان كنت فقط ربما ألاحظ أن ملابسه دائما سوداء وعندما سألته ليلتها لماذا لا يجرب ألوانا أخرى أخبرنى بابتسامة غريبة إنه لونهم المفضل، تعجبت من صيغة الجمع، وقلت له:

— لونكم ؟

أبتسم بخبث وقال:

— نعم؛ لوننا، أى لون النجوم والمشاهير المفضل.

ثم أضاف وهو يشير إلىّ:

— تماما كما ترتدى أنت أيها النجم.

ألتفت أنظر لملابسي التى ارتديها لحضور الحفل فى حركة لا شعورية لاجد نفسى انا إلاخر دون قصد، ارتدى ملابس سوداء.

بمجرد دخولى إلى القصر ظهر لى صاحبى، وكنت قد اصبحت أنزعج من ظهوره، إلا أننى كنت أيضا قد وقعت فى هوى أناقته وهدوئه وثقته بنفسه، أقترب منى فطلبت منه بهدوء:

— ارجوك؛ توقف عن الظهور لى، ولا تتحدث معى.

يرد علىّ والمح للمرة الأولى شبح ابتسامة تطفو على وجهه:

— فات أوان الرجاء والرغبات، فأنا ملازمك حتى يستوى عندك الشك فوق اليقين أو ارحل إذا حدث العكس.

تعجبت من الكلام ولم أفهمه وسألته.

— ماذا تعنى؟

- سوف لن أرحل حتى يحسم ذلك الصراع بداخلك ، فإما أن يستقر بداخلك ذلك الإيمان الحميم الصلب وحينها أرحل وأختفى تماما من حياتك ، أو تميل إلى هواك وعشق نفسك فأظل موجوداً اظهر لك من آن لآخر.

انفعل وارد:

- عن آى ايمان تتحدث يا رجل ، المفروض كما تزعم أنك الشيطان، والمفروض أنك غير مؤمن وتحاول أن تثنينى عن الأيمان.

يرد بهدوءه وثقته القاتلين:

- من قال هذا ؟ من قال إننى غير مؤمن، أنا مؤمن بالله، بل أنا صنيعة الله، أنا فقط عصيت الله، عصيت أمرا لله، ولم أكفر به، أنا عبدا لله جل وعلا، أنا صورة من صور مشيئته، وجُلّ ما طلبت من الله أن يُرجئنى إلى يوم تبعثون، وتأدبت وأقسمت على الله بعزته وجلاله، فتقبل ربى وجعلنى من المنظرين، أنت فقط لا تفهم، ولا ترغب أن تفهم، تتعامل مع عقلك وإرادتك وحريتك تماما مثل اولئك الذين سوف تراهم الآن، توؤل الأشياء وترفض حقائق الأمور، وتصر على تعذيب نفسك، تماماً كالنبى موسى حين صاحب الرجل الصالح الخضر، انت لم تطق ما لم تستطع عليه صبرا.

تتوقف أجهزتى تماما عن العمل كعربة نضبت طاقتها، ولم أعد أدرك، أفى حضرة الشيطان أنا؟ أم بحضرة نفسي؟ أم قرينى أم هواي؟ ويختلط على الأمر من منطق صاحبى أو قرينى، فأقرر الصمت والمشاهدة.

فى القبو الداخلى للقصر تحلق مجموعة من الشباب والفتيات اتشحوا جميعاً بالسواد وكأنه زي رسمى يرددون ذلك الترتيل الغريب:

أبى الذى فى الجحيم

فلتكن خطتك

وليأت ملكوتك

وليكن دورك فى الحكم

ياعالم بالوادى الأسود فى قلب البشر

يا مُطلق الجبروت البشرى والمرح المطلق

يا صانع السلطة والترف

يا نبع قوتى الطاغية

أقتل ضعفى القمئ الذى تسلل إلى

أخرجه منى واجعلنى جباراً

جفف دموعى التى أريقت فى سنوات الكفر على أعدائى

إجعل قلبى قطعة من سواد الجحيم العظيم الذى فيه ملكوتك

أبى الذى فى الجحيم فليكن غضبك فى السماء كما هو على الأرض

سيد المَلَزّات أنا عبدك التائب ابن نارين

هلا تقبلت منى!

التفتُ إلى صاحبى متسائلاً فيردّ:

- إنهم عبدتى أو هكذا يتصورون.

- مَن ؟

- إنهم عبدة الشيطان، مجموعة من البشر تؤمن بقدرتى على تحقيق حاجاتهم.

- وكيف أمكنهم الدخول والمكان مراقب.

- الحارس مسكين وراتبه ضعيف وهو يتقاضى منهم راتباً أكبر بكثير للسماح لهم بالدخول فى أى وقت.

- ما هذا النشيد الذى يرددونه وكأنة دعاء أو صلاة!

- هى ترانيم قام بتأليفها أحدهم ولم يكن لى يد على الأطلاق فى تأليفها أو حتى الإيحاء بها.

- ولماذا يرتلونها؟

- للتقرب منى

- وهل يتقربون ؟

- هم قريبون أكثر مما تتصور، قريبون للدرجة التى جعلتنى لا أكلف نفسي عناء البحث عنهم أوالذهاب اليهم هم يكادون يلحون على فى مساعدتهم.

- وتساعدهم؟

- هم ليسوا فى حاجة لمساعدتى هم يفعلون ما يرغبون دون تدخل منى.

- وأنت ماذا تفعل ومن تساعد ؟

- أنا أتقرب للمحايدين ... أمثالك.

- المحايدون أمثالى ؟

- المحايدون أولئك ليسوا بمؤمنين ولا كافرين، يستوى الخير والشر بداخلهم، يستوى الشك واليقين عندهم، إلا أن الشر فى الغالب ينتصر، أنا فقط أنتظر وأراقب لأرى الشك ينتصر.

- ولماذا تفعل ذلك ؟

- لأثبت أننى لست الوحيد الذى رفض وجادل وسأل وفكر ... واختار.

- ولماذا تختار الأغلبية الشر ؟

- لانه مريح ومقنع ... وقوى

- الشر مقنع ومريح ؟

- نعم، أسأل القادة والحكام والقساوسة والمفكرين وسوف يخبرونك بذلك.

- وماذا عن الخير والحق؟

الخير محير ومربك وضعيف، لا حيلة له ولا حول ولا قوة ، وحياته قصيرة يقضيها ويفقدها فى هدوء واستسلام ، لو كان يقينة راسخ ... لانتصر.

لم ينقذنى من كلامه سوى شريف صديقى وصاحبته البلجيكية عندما أقبلا لتحيتى، فتنحى صاحبى فى هدوء يراقب من بعيد.

كان بصحبة شريف فتاة أخرى قدمها لى على انها أختٌ لصاحبته وأنه يرشحها لى، تقدمت الفتاة نحوى وقبضت على يدى وجذبتنى نحوها بفجاجة ووضعت يدها

اليسرى خلف رأسى وجذبتنى وهمت بتقبيلى انزعجت من فجاجتها وباعدت بين رأسي وفمها الممتلىء بالخواتم والتى تفوح منه رائحة الخمر ضحكت الفتاة وأخبرت شريف أننى معتوه وأننى يبدو أننى لست أحدهم، التفتُ أنظر إلى شريف أسأله:

— من تقصد بأحدهم؟

ترك شريف فتاته وتأبط ذراعى اليسرى وقال لى بلهجة الناصح الأمين:

— أنت من المصطفين وأنا استشعر بغريزتى الشيطانية أنك لا تميل للدين ولا تقتنع أو تعترف به، وتبدو كمن لا مّلة لك، وحرى بك أن تنضم لنا، فنحن أفضل من يمكنك أن تستفيد منهم، ويمكننا أيضا أن نستفيد منك.

كانت كلماته تنسل بأذنى كحيّة وأنا أراقب المشهد أمامى لأجد الكل مندمج فى ملكوته الخاص؛ فمن يدخن بشراهه مخدرى الحشيش والماريجوانا ومن يحتسي الخمر بجنون من الزجاجة مباشرة ومن يقبل فتاته بشكل لا يمت للتقبيل بصلة أو من تقبله فتاته فى مناطق لا عقل يستوعب تقبيلها ومنهم من يجتمع ثلاثتهم أو خمستهم على فتاة واحدة ويتناوبون عليها ثم أتوا بحيوان يشبه العنزة، لونه أسود وكئيب المنظر ومزعج الصوت ذبحوه ولطخوا أنفسهم والجدران بدمه وانتزعت إحدى الفتيات ثيابها وتبرعت بالإستلقاء على مذبح أعد خصيصاً لذلك الطقس، ليبدأوا بتلطيخ جسدها العارى بدم الجدى القربان ويتكلمون ويشيرون بكلمات وعلامات غريبة ويعبثون بجسدها ويلعقون الدم من عليه ، تسمرت عينى ونظرت لصاحبى فهز رأسه يمنة ويسرة كمن يرفض ويقول إنى برىء مما يصنعون، وانتهى شريف من تلاوة دعوته التى مرت على أذنى كلفحة هواء باردة وسمجة ولم تترك بى أثراً. سالته بعدها:

— ولماذا تدعونى لتلك العبادة وأنا على حد علمى أعرف أن أصحابها لا يدعون لها غيرهم.

قال وقد تحولت ملامحة فبدت باهتة ومخيفة:

– أنا أشفق على حياتك أن تذهب هباءً فى الشك والدين والبحث وأتمنى لك الخير، وأرغب أن تنعم بما ننعم.

سالته وأنا تتحول ملامحى أنا الآخر ويعلوها الإشمئزاز:

– وأنتم؟ بماذا تنعمون؟

قال برعونة واستنكار ودهشة:

– ألا ترى يا رجل؟ نساء ومال وخمر وسهر وكل ما ترغب فى أى وقت ترغب.

باعدت بينى وبينى وأزحت يده اللزجة عن كتفى وأنا أخبره:

– سوف ألقى ما فى جوفى بعد ثانيتين والأفضل لك أن تبتعد عنى قبل أن يصيبك القسط الوافر منه.

ضحك بلا مبالاه وقال:

– يبدو أننى كنت مخطئا وأن شيالا أخت صديقتى كانت على حق بصددك، وأنك معتوه ورافض للنعمة.

أزحته عن طريقى ومسحت مكان التصاقه بى عن ملابسي وخرجت من فورى من ذلك الجب الملعون أستنشق بعض الهواء النقى وأنا لا أصدق ما رأيت أو سمعت وأنفضه عن رأسى وأنظر للقصر فأجده بيتا عادياً لا تعلوه أو تسكنه الشياطين، لا تتقافز أو تطير حوله، مجرد منزل هادىء وساكن كأى منزل ليس به قاطنون. الشياطين الحقيقية كانت تربض بقبو المنزل بعيداً عن العيون، بعيداً عن الناس والنور، ترتع فى غيها وشذوذها.

سمـــاء

أن تكون غنيا

تأكل جيدا

ترتدى جيدا

تنام جيدا

تتعلم جيدا

تتزوج من فتاة احلامك

تتزوج مبكرا

ترى أولادك مبكرا

لا تحمل هما

أن تكون فقيرا

تأكل ما تجد

ترتدى ما تجد

تنام كيفما اتفق

تتزوج إن أمكن

أو لا تتزوج على الإطلاق

ترى أولادك بعد أن تصبح فى سن جدهم

أو لا تراهم على الإطلاق، فقد وافتك المنية

لا تحمل إلا هما

ويكون أكثر دعائك
اللهم أحينى مسكينا
وأمتنى مسكينا
واحشرنى فى زمرة المساكين

طوبى للأغنياء
ولا عزاء للفقراء

من أغرب الأقدار التي كانت تثير حنقى وحيرتى دائماً، إنك تولد غنيا فتستقيم وتستقر حياتك أو تولد فقيرا فتتعثر وترتبك حياتك، وكأنها رمية نرد، إما أن تكون محظوظا وغنيا أو تعيسا وفقيراً، كنت الاحظ فى الأغنياء من زملائى وأتعجب ويستفزنى ذلك التمييز، لا أحقد عليهم أو أحسدهم فقط أتعجب من ذلك التمييز غير المنطقى وغير المبرر فلا هم اختاروا الثراء لأنفسهم ولا هم فرضوا الفقر على الفقراء، ولا هم أصحاب حق إلهى أو هم أبناء الرب، هم يولدون فيجدون أنفسهم أغنياء بدون فضل منهم ولا حول ولا قوة، والفقراء يولدون فيصتدمون بالفقر بلا حول منهم أيضا ولا قوة، كنت أرى زملائى الأغنياء دائماً يبتسمون فكنت أربط بين الثراء والسعادة وكنت أرى أصدقائى الفقراء يبتسمون أيضا ولكن من سخرية وليس من سعادة، كنت أرى زملائى الأغنياء أصحاء أقوياء بشرتهم بيضاء أو وردية، من أثر التغذية الصحية السليمة المنتظمة، وأرى أصدقائى الفقراء باهتى البشرة وجوههم ممصوصة وصدأة من سوء التغذية وكأن ساحرة أمتصت منها الحياة، شعرهم كالح وكث ويفتقد إلى التنظيم والصحة أو صلع وبلا شعر على الإطلاق، وشعر زملائى الأغنياء ناعم وغزير ومرتب بطبيعته دون تدخل منهم، وكأن الإله الذى خلق الفقراء غير

الإله الذى خلق الأغنياء ، كانت ملابس زملائى إلاغنياء جميلة وفاخرة ومنتقاة وتقى من برد الشتاء وملابس أصدقائى الفقراء كئيبة ورثة وأحيانا مستعملة ولا تقى من أى برد حتى أنه كان يخيل لبعضهم أن البرد مرض لا وجود لعلاجه، كنت أرى زملائى الأغنياء يرتادون مطاعم ومقاهى بيتزا وماك وسيلينترو وكوستا ولا يكترثون لقيمة الفاتورة وأصدقائى الفقراء كانت قهوة بعرة بمثابة نادى السيارت لهم، كان الجمبرى والسي فود والفاهيتا الوجبات التقليدية لزملائى الأغنياء وكان الفول والكشرى الوجبات الإجبارية لأصدقائى الفقراء، كان الزواج مُسلّمة لزملائى الأغنياء وحلم العمر لأصدقائى الفقراء، كانت زميلاتى الغنيات يتزوجن زوجا وسيما وثريا ومتعلماً وصديقاتى الفقيرات تعنسن أو تمتهن البغاء فلا عريس يبدو فى الأفق، أو يتزوجن أى فقير بائس مثلهن، كان زملائى الأغنياء يمتنون لله كثيراً واصدقائى الفقراء يسألون الله كثيرا، لم يكن لزملائى الأغنياء دعوات أو أمنيات فكل ما تمنوه تحقق، كان لأصدقائى الفقراء دعوات وأمنيات لا تتحقق، كان لزملائى الأغنياء وظائف مرموقة ولم تكن لأصدقائى الفقراء وظائف على الإطلاق، كان زملائى الأغنياء يحرصون على اقتناء الحيوانات وكان أصدقائى الفقراء يحسدون الحيوانات، كنت ارى الفتيات الغنيات جميلات ذكيات مثقفات مثيرات والفتيات الفقيرات يحاولن أن يكن كذلك فيفلحن أحياناً ويخفقن غالبا.

كنت أنصت إلى تلك الآراء من سماء، البنت المصرية، التى كنت قد تعرفت عليها حديثا وعندما وجدتنى أردد الشهادة كثيراً، وهى عادة لدىّ أن أردد شهادة التوحيد فى معرض حديثى كثيراً، سألتنى:

– هل انت متدين ؟

علت ابتسامة وجهى وسألتها بدورى:

– لماذا تسألين ؟

ابتسمت بخبث وقالت:

— أنت متدين.

اجبت باقتضاب وبصوت محايد:

— اجل.

وأردفت:

— وأنت لا دينيه؟

قالت بكل بساطة وبمنتهى الهدوء ودون خجل أو استنكار أو لهجة دفاعية:

— اجل.

استفسرت منها عن معنى لا دينية قالت:

— أنا لا أؤمن بوجود الله، ولا أرى قيمة أو ضرورة لوجود الدين ولو كان الله موجودا فمن الضرورى أن يرفع البلاء عن البشر وهو لا يفعل، وبما أن الله لا يمثل مظلة تحمينى فلا داعى للاعتقاد بوجوده أو أنه فى الأصل ليس موجودا على الإطلاق ، ولو أن الله موجود والعالم هكذا، فهذة مصيبة، ولو أنه غير موجود فهذة كارثة، إلا أنها كارثة لها ما يبررها ويبرر عمق غموضها وقسوتها وغرابتها، وأفضل من مصيبة تقع يوميا تحت عين الإله. والدين متناقض وكئيب ومنقوص يقلل من المرأة ويجعل للرجل كل الحقوق من الزواج بأربعة والحظوة بسبعين جارية فى الجنة وإتيان المراة أنى شاء دون اعتبار لاستعدادها أو رضاها، إضافة إلى القسوة الغريبة فى تعذيب الناس وتبديل جلودهم غير جلودهم، أى رحمة فى إله يتفنن فى تعذيب البشر إلى هذا الحد، ولماذا خلقهم إذا كان سوف يحرقهم إلى الأبد فى الجحيم، ويبتليهم بأمراض إذا كان هو من يصيب، أى رحمة فى اله يصيب بالمرض ويعذب الناس، وأين كان الرب عندما خُلق الإنسان جباناً ومريضاً وفاسداً وشريراً، واذا كان الإنسان ناقصا فهل احتفظ الرب بالكمال لنفسه أم أنه نقص جاء من نقص، وكيف بالكمال ألا يخلق مخلوقاً كاملاً أو مخلوقاً معتدلاً وسوياً، واذا كان

الرب موجوداً فأين هو لماذا يختفى وماذا يريد، وبأى حق ولأى سبب يتحكم ويقتل بشر أمثال ستالين وموسوليني وهتلر وغيرهم من الطغاة حياة الملايين وأى عقاب يمكنه أن يعيد حيوات تلك الملايين ويرد لهم ولذويهم حيواتهم وامانهم والحد الأدنى من سعادتهم وأى عقاب يوازى ما حدث وما لم يكن يجب ان يحدث ولا مبرر لحدوثه وما فائدة العقاب بعد كل ذلك القتل والالم والعذاب.

أنا لا أقتنع بالرب أو بفكرة الإله ولا بصمته الدائم وقبوله للألم والمعاناة البشرية اوتفضيلة لأمة عن باقى الأمم "كنتم خير أمة أخرجت للناس" كيف يكون الرب عنصرى ويتحيز لمجموعة من البشر دوناً عن غيرها، ثم وكيف أصدق وأنتم حالكم ليس مصداقاً لقوله، وكيف يجبر الرب البشر على عبادته ، ومن يرفض أو لا يرغب يتوعده الإله بالعقاب والعذاب والنار، لماذا لا يترك للبشر حرية قبوله أو رفضه وهو الإله المستغنى ، ولماذا خلق المسيح بتلك الكيفية الأسطورية وهى كيفية أدعى إلى التصديق بألوهيتة أو كونه ابن الإله وليس بشراً، لماذا لم يكن المسيح طفلاً عادياً، لكان ذلك أقرب للعقل البشرى كونه رسول، وأنى له أن يحيى الموتى وهو بشر، وحتى لو قال وأقسم انه يحيى الموتى بأمر الرب، فالعين تصدق ما ترى لا ما تسمع، والبشر عامتهم سطحيون ومحدودو العقل والتفكير وأقرب إلى قبول فكرة أن من يحيى هو الألـه أو ابن إلاله ولا يمكن أن يكون بشرا، لا بشر يحيى الموتى، ولا رسول فعلها من قبل ولا من بعد.

لماذا يتوراث الفقر الفقراء والثراء الأغنياء، وكأن الرب غير مقسط ولا يتدخل فى توزيع الرزق كما تخبر الرسالات، لماذا يلجأ له الضعفاء والمحتاجون والمضطرون ويستغنى عنه الأغنياء والموسورون وإذا لجأوا فهو امتنان طفيف أو تملق أو بالأحرى خوف من أن تنقلب حالهم فى غضبة من غضبات الرب وما أكثرها،

فيصيروا فقراء، وهم لا يرغبون بالفقر وقسوتة وغرابته، حتى لو كانت السبيل تملق الرب،

لماذا الرب يتكلم فقط ولا يفعل، وإذا فعل كان موت أو خراب أو مرض، أو ما اصطلح على تسميته ابتلاء، أى ابتلاء هذا الذى يعصف بحياة الناس،ولماذا لا يكن خيرا وعدلا ورحمة.

ثم أن الدين لا يضمن أن يكون الإنسان جيدا، فمسلمون ومسيحيون كثيرون سيئون، ولا يردعهم الدين أو يروضهم، بل ربما جعلهم أكثر عصبية وعنصرية، واللادينيون أو العقلانيون، أشخاص يستخدمون عقولهم للتفريق بين الجيد والسيىء، المقنع وغير المقنع، النافع وغير النافع، المنطقى وغير المنطقى، وبما أنهم لديهم عقل ولهم القدرة على استخدامه للتفريق بين الصواب والخطأ وليس لخوف من الإله وعقابه، لذا فالادينيون يؤمنون أن العقل أفضل من الدين، الدين يفرق بين الناس ويعطى لهم العذر لكى يكرهوا بعضهم البعض أو ليسيئوا لبعضهم البعض أو ليكفروا بعضهم البعض والأسوأ أن يحاربوا بعضهم البعض، الكل يعتقد أنه هو فقط من يؤمن بالرب، هو فقط من يعبد الرب، هو فقط من يتقرب من الرب، هو فقط من يحتكر الرب، هم فقط من يحترمون الرب، ويحتقرون بعضهم البعض ، ويعاملون الآخر وكأنه عدو.

الرب قوى كفاية ليهتم ويدافع عن نفسه وليس بحاجة لمحتكرين أو مدافعين عنه، الرب ليس عذراً لحماقة الحمقى وعصبية المتعصبين، الرب ليس عذراً للكذب والخداع والإحتيال والتصرف بتشدد أو حماقة أو تعصب، الرب بتلك الصورة وهذة الكيفية لا يمكن الإيمان به والوثوق فيه، الشيطان فقط هو من يمكنه أن يملك تلك الصورة، لو أن البشر تتصرف وتعامل بعضها البعض بهذا المنطق فهى بهذا أحرى أن تكون عبدة للشيطان لا للرب وهو ما يثير التساؤل ويؤجج الحيرة، هل نحن نعبد

الرب أم نعبد الشيطان ؟ لأنه من المفروض أن يخلقنا الرب أنقياء أتقياء صالحون، نتحلى بالبراءة والطهارة والتسامح ، ولكن الطريقة التي يتصرف بها البشر توحى أنهم لا يعبدون الرب وأنما يعبدون الشيطان وكأنهم خلقوا من شر أو أتوا من الجحيم لا من القدرة والرحمة، والأغرب والأعجب أن البشر أنفسهم لا يقاومون ذلك الشر أو لا يقاومونه بالشكل الكافى وأنما ينقادون له ويتبعونه وكأنه مشيئة أو كأنهم يرتاحون له أو يؤيدونه أو لا يرغبون بمقاومته وكأنه من الأسهل للبشر أن يتبعوا الشر أو يكونوا اشرارا، وإذا كان الشيطان يوسوس للناس بالشر، فمن يوسوس لهم بالخير، وإذا كان الرب خلق البشر ليعبدوه فلماذا خلق بشراً ليعبدوه إذا كانت الملائكة تقوم بتلك الوظيفة بالفعل، ولماذا يحتاج الرب إلى بشرٍ يعبدوه وهو الغنى عن الحاجة، وإذا كانت الحاجة للناس أو من أجل الناس ، فلماذا يخلق الرب بشراً ثم يخلق لهم حاجة ثم يجبرهم على تلك الحاجة، الدين جبر ومن يرفض يحشر فى النار، لماذا لم يكن الدين اختياراً وحرية، من يقبله حراً فى اختياره ومن لا يقتنع أو لا يلتزم أو لا يختاره حراً أيضاً وغير مهدد ومطارد بفكرة العقاب والجحيم والعذاب ، لا يتفق الترهيب وجلال الرب وقدرته ولا يتفق العقاب والتعذيب ورحمة الإله الخالق الواهب.

الغرائز جبر ولا يمكن الفرار منها بغض النظر عن إمكانية إشباعها أو عدمه فلابد للبشر أن يأكلوا بغض النظر عن توافر الطعام أو المال أوعدم توافرهما، من المفروض أن تشتعل الغريزة عندما تجد ما يشبعها لا العكس، فكيف تستعر غريزة الجوع دون أن يوجد طعام أو مال لشراء الطعام، وكيف تستعر غريزة الجنس دون أن يكون الرجل أو المرأة فى رباط ، كان يجب أن تكون الغرائز اختيارية تعمل حين يرغب المرء أو يقدر وتتوقف حين يرغب المرء أو لا يقدر ، أما أن تترك على إطلاقها هكذا دون الأخذ فى الإعتبار إمكانية إشباعها أو كبتها وهو الوارد والشائع

والمؤلم، والأكثر إيلاماً أن من يرغب أو يحاول أن يتحدى القدر فهو كمن يختزل أسوأ كوابيسة وكأن الرب كما جاء فى العهد القديم يغضب وينتقم وأشياء أخرى وهى صفات لا يجب ولا يجوز أن تكون فى الإله.

ثم إننى لا يمكننى الوثوق بإله يخلق جحيما كيف يكون الإله رحيما إذا كان قد صنع جحيما، ألا يكفى جحيم الحياة والفقر والحاجة والمرض والألم والوحدة والموت واليتم، ألا يكفى جحيم الأشقياء والكذابين والمنافقين والمتعصبون، من أتى بهم هكذا؟ من غرس تلك الصفات فى جبلتهم، من جعل اليهود منافقين والمسيحيون متشددين والملسمون متعصبين؟ لماذا خلق الرب الحياة؟ ولماذا خلق إلانسان؟ وإذا كان جعله خليفة له فى الأرض فخليفة لماذا؟ وكيف يخلف بشر الإله ويخلفه على ماذا ولماذا ؟

تمتلىء الطبيعة البشرية بالعيوب والنقائص كما اصطلح على تسميتها بذلك، والأقرب للصدق والحقيقة أن يقال أن الطبيعة البشرية خلقت وجبلت على ذلك، جبلت على الشر والشهوة والأنانية، فكيف لطفل أن يغار من أخية الذى حتى لم يولد بعد! ولماذا تجبل طبيعته على الغيرة والأنانية، وكيف لأب أن يشتهى ابنته وربما يضاجعها فيما يعرف بزنا المحارم كان المفروض أن ينتفى عرض شهوة المحارم من الطبيعة البشرية، الغيرة والأنانية والشهوة ، ثلاث نقائص كبرى فى التصميم الأخلاقى البشرى، لم يكن من المفروض أن توجد، وحتى عندما حاول الدين تدارك ذلك، لم يستطع، وكان الأولى ان تنتفى تلك الصفات فى الأصل من الجبلة البشرية، فتستقيم الطبيعة الإنسانية ، ويرتاح الدين من مهمته التي لا سبيل لإتمامها.

لم يكن وطيس الكلمات قد هدأ بعد، رغم أننى تركت سماء، وذهبت لأجلس فى بقعتى المفضلة عندما أهتم بأمر ما وأرغب أن أكون وحيداً، بقعة نائية فوق قمة جبل المقطم ، فى مكان مظلم وموحش، ربما يخشى أى أحد أن يقترب منه ولوبرفقة أحدهم، أراقب القاهرة بأنوارها وقبابها وصلبانها وبيوتها، أرقب تلك العاصمة الرابضة كحيوان خرافى مروض، أستنشق هواءها الملوث، وأبتسم لرؤيتها ووجودها وكأنها أمراة وليست مكان، أفكر فى نسائى وفى حياتى، أفكر فى ابنى آدم، أكثر شىء أحببته على الإطلاق منذ وطأت قدمى ساحة تلك المعركة المسماة بالحياة، أتذكر قبضته القوية، واصراره وعناده ومحاولاته التى لا يتسلل إليها اليأس، أنتبه من تصوراتى على صاحبى، يجلس بجوارى تماما، بنفس هدوئه، وكأنه موجوداً منذ الأزل، شاخصاً بصره إلى الأمام، متطلعاً إلى أفق لا نهائي، ودون أن ينظر إلى، تسلل صوته بطيئاً زاحفاً حازماً تملؤه نبرة إصرار وبرود لم اعهدهما فيه:.

- سوف أرحل عنك، سوف لن ترانى ثانيةً، يبدو أن الخير والشر بداخلك يستويان، ويرتاحان لذلك الإستواء، أو لا يرغبان فى التخلص منه، وكأنه حل، يبدو أن الشك واليقين بداخلك يطمئنان، ولا يرغب أحدهما أن ينتصر.

أرد بحيرة وتعجب:

- قلت أنك سترحل فقط عندما يتغلب أحدهما.
- لا يبدو أن أحدهما سيتغلب، وأنا لدى آخر لابد أن أذهب إليه.

ينقبض قلبى وتعتصره قبضة باردة، وأنا أتوقع ذلك الآخر، وأرغب وأتمنى أن يخيب ظنى وتوقعى وأسأله:

- آخر ؟ مَن ؟ وأين ؟
- آخر هناك ، فى لندن.

أغمض عينىّ وأصمت ويسقط فى يدى.

يلفح الأذان أذنى ، ويبتلع الظلام صاحبى ، وتداعبنى ريح طيبة ، تلك الريح الطيبة التى كنت أجهل مصدرها والتى اعتادت أن تزورنى من آن لآخر وقت أن كان يحيا أبي، والتى أعتقد أننى عرفت مصدرها الأن، وأنا أفكر فى آدم، ابنى، الرابض فى قلب العالم المتحضر، المقبل على خيارات قاسية ومصيرية، خيارات لا ترحم، خيارات لا تفلح معها الحيادية أو الوسطية، خيارات لا نهائية، وأرجو أن يحسن الخيار، حيث هناك فرصة للاختيار، وألا يقع فى نفس الخيارت التى وقع فيها أبيه.

بقى أن أذكر شيئاً هاماً، ربما أهم شىء على الإطلاق، أنا خالد، اسمى خالد، وهو خيار من ضمن خيارت عديدة، لم تتح لى فرصة قبوله أو رفضه، وهو أكثر ما يزعجنى فى تلك الحياة وأكثر ما لم أكن أرغب فى أن أكونه ... ان اكون خالداً.